محمد سعيد الصكار

فصول محذوفة من رواية بتول

رواية

منشورات الجمل





(روايـة)

منشورات الجمل

الكتاب : فصول محذوفة من رواية بتول (رواية)
المؤلف : محمد سعيد الصكار
تصميم الكتاب والغلاف : محمد سعيد الصكار
الحروف المستعملة : من مجموعة حروف الصكار الطباعية

www.saggar.com

mohammed_saggar@yahoo.fr

ملاعق الذهب

- أين وضعتِ ملاعق الذهب يا إنعام ؟

- في موضعها .

- أخرجيها وأعيدي جلاءها ، وحضّري المناديل البُنيّة ، اسرعي ، لا تَشغَلي نفسك بشيءٍ آخر .

- حاضر .

تطلعتْ إلى المائدة المستطيلة ، المفرطة في الطول ؛ حرّكت مواضع الصحون ، وبلمسات خفيفة مرّت على الزهور المنسّقة الموزّعة أمام المقاعد الباذخة ، ووقفتْ على بعد تتأمل للمرّة الأخيرة هيأة المائدة . كل شيء علي ما يرام . تنهّدتْ وشعرت بالرضا . لكن غمامةً من إحساس غامض صعدت إلى صدرها وضغطت عليه ؛ قلق لازمها منذ أن جيء بها إلى هذا المكان ، حيث لا حدود للقناعة ، ولا حدود للشك ، ولا لأي شيء ؛ الحدود كلها مفتوحة ، وكل شيء سائب ومعلّق في الهواء ، قابل للنقض والالغاء

في أية لحظة ؛ وهي أيضاً قابلة للالغاء في أية لحظة .

أحسّت بأنـها تطفو ، وأن تـوازنـها تـخلخل ، صار كل شيء موضع شك ومهدّداً بالانهيار .

يوم جيء بها إلى هذا المكان أسندوا إليها إدارة الشؤون الفنية التي لا حدود لواجباتها ، فهي تمتدّ من تـنظيم الحدائق والأرصفة ، إلى تبويب كتب المكتبة العامرة بمختلف التآليف في العديد من فروع المعرفة ، والتي لا يزورها أحد ، ولم يكن للفنون أي حظ فيها .

بعد أيام ، عهدوا إليـها بادارة صالة الاحتفالات الكبرى ، والاشـراف على كل ما فيـها ، من الديكور إلى إعداد الطعام الرئاسي . وقد راق لها ذلك لكونه قريباً من مجال اختصاصها الهندسي ، فكانت على صلة دائمة بقسم الديكورات الذي يضم أحدث أجهزة النجارة ، ويشرف عليه مصمم معماري كانت على معرفة به ، وكان ذلك يبعث في نفسها توازناً هي في حاجة إليه . الشيء الجديد الغانم والمربك في مسؤوليتها الجديدة هو إدارة صالات الموائد الرئاسية .

●

أصدرت أوامرها إلى الطباخين ، وراحت توزع بنفسها وحدات

الديكور الذي يفترض ، في رأيها ، أن يتبدل وفق نوعية الضيوف ومواضعات بلدانهم وأديانهم ، وطبيعة ما ستضمه الموائد من المآكل الرئاسية .

ذلك اليوم هرولت في كل اتجاه ، تناقشت مع جميع العاملين ، وزعّت طلباتها على خمسين منهم ، أكدت أوامرها ، تابعتْ التحضيرات ، نقلت مادة من هنا ووضعت مادة هناك . إنه يومُها الأول ، امتحانها الذي لا يقبل أدنى خطأ . كانت خائفة من أمر غير محدّد ، مع أن شيئاً من الثقة بسلامة ذوقها الذي سوف لا يخفى على ضيوف هذه الليلة ، كان يمنحها بعض الارتياح .

ما إن اطمأنّت على سلامة كل الأمور حتى ركنت إلى زاوية من المكان وهي مهدودة القوى متوتّرة الأعصاب ، تنتظر مدير الديوان الذي سيأتي للاشراف على ما قامت به .

غامت نفسها ثانية ، وأحسّتْ بأنها موشكة على البكاء وهي تتذكر ذلك اليوم .

- ما هذا أيتها الفنانة الذائعة الصيت ؟

كانت نبرته ملتبسة بين الثناء والانتقاد ، فلم تميّز بينهما . وإذ حنى رأسه وتطلع إليها باستخفاف ، نشف ريقها وغارتْ الكلمات عميقاً في صدرها ، وبذلت مجهوداً شاقاً لتنطق بكلمة

فلم تستطع . ظلتْ صامتة .

- نادي العمال ليزيلوا كل هذه الخزعبلات . ارفعي هذه الأصص الكريستال وما عليها من الأوراد الطبيعية التي ستذبل وتخجلنا أمام الضيوف الأجانب ، وأرجعي صواني النحاس وبواخر الفضّة والمنسوجات الوطنية والأوراد الاصطناعية إلى مكانها ؛ يللا ، بسرعة ، أمامك نصف ساعة فقط .

نصف ساعة ؟

إنها لا تكفي حتى للمّ هذه الأدوات ، فكيف بإعادة المواد القديمة التي دحرجتها إلى المخازن باعتبارها لا تناسب طبيعة هذا الوفد ولا غيره ؟!

شعرت بموجة كثيفة من الهواء تنفخ في كيانها الذي راح يطفو ، هواء في الرأس الذي لم يعد يأبه بما يُثقل عليه من صداع ، تركز كل الضغط على جبينها وصدغيها ، وانفتحت عيناها بانبهار مخيف على القاعة الواسعة ، واندفعت بقوة تتحرك وتصدر أوامرها بعصبية مكتومة . لم يكن هناك وقت للتفكير .

- أزيحوا كل ما هو موجود وانقلوه إلى المخازن ، هرولوا ، أعيدوا الموجودات السابقة إلى مكانها في القاعة .

أي موجودات ؟

من يدري ما الذي كان موجوداً ؟

طارت معهم إلى المخازن . حاولت أن تتذكر ما كان موجوداً في القاعة ؛ هذا ، هذا ، سلال الخوص ، بساط البدو ، التماثيل الفضية ، صواني النحاس ودلال القهوة والأراكيل ، يللا طيروا !

طاروا . يتجنّب واحدهم الاصطدام بالآخر ، سبقتهم إلى القاعة ، ووجهت حركتهم ، هنا ، هناك ، أديروا هذا إلى اليسار ، هذا إلى الخلف ، يللا ، أمامكم عشر دقائق .

- إنعام تعالي معنا ، نظمي الزهور الاصطناعية ، لا ، اتركيها لمحمود ، جهزي الشراشف السورية ، ومناديل الحرير . يا سماء! ما الذي تفعله أنت يا جبار ؟ تحرّك ، خذ هذه الجرّة الخزفية إلى أقصى القاعة وعلّق البُسُط الصوفية هناك ؛ إرفع لوحات جواد سليم وڤازاريللي ، وضَع مكانها صوراً من البادية .

كان العمال والعاملات يبذلون أقصى جهدهم لتلبية أوامرها ، وبسرعة خرافية ؛ لا احتجاج ولا مناقشة ولا اقتراح ، ليس إحتراماً منهم للأوامر ، وإنما مشاركة لها في الخروج من محنتها المفاجئة ؛ كانوا يشفقون عليها وهي في يومها الأول ، ويعلمون ما يمكن أن ينتظرها إذا فشلت .

●

مر مدير الديوان بعد ساعة .

- هكذا ؛ الآن أحسن . عليك أن تفكري دائماً بمنتجات الوطن . لا عليك بالأفكار الجديدة ومتابعة المودة . أنتِ في مقتبل العمر وعليك أن تتعلمي الإتيكيت ومستلزمات إبداء التراث الوطني ؛ نحن لسنا بلا تراث ولا تقاليد ، من يزورنا ينبغي أن يتعرف علينا وعلى ما لدينا من حضارة ضاربة في التاريخ ، هكذا تعلمنا . إذا كنتِ بحاجة إلى المزيد من سلال الخوص وأواني الفخّار والمنسوجات الشعبية ، فما عليك إلا أن تتصلي بالسكريتارية لتزويدك بما تريدين . أو لا! خذي رقم تلفوني ، واتصلي بي متى شئتِ .

ما إن غادر حتى انزوتْ إلى غرفتها وراحت تبكي ؛ أفهذا ما كانت تحلم به وتعلمته خلال بحثها المتواصل عن الجديد والجميل ؟!

لم يحضر الوفد إلا بعد ثلاث ساعات . ولم تنتهِ الدعوة إلا في منتصف الليل .

●

- كيف كان يومك يا بتول ؟

- أنا متعبة جداً ، أحتاج إلى بعض الراحة .

- هل أعدّ لك كوب زهورات ؛ ستنعشك ؟

- شكراً ماما ، أريد أن أنام الآن .

ولم تجِبْ عن الاستفسارات المتتالية من أفراد العائلة ، قالت لهم إنها متعبة جداً ، وستحكي لهم غداً .

■

اليوم المنكود

منذ ذلك اليوم المنكود وهي تتوجس من حرية الحركة . ومن تأويل المسؤولين لتصرفاتها ، وما تثيره المنافسة في مجالات الوظيفة ، خصوصاً مثل وظيفتها التي يحسدها عليها الكثيرون والتي تحتمل التأويل والتخريج بما لم تكن على دراية به . انكسرت في نفسها تلك الحماسة ورغبة التجديد والابتكار ، وهي المهندسة الفنانة المشهود لها بالذوق الراقي ، والخيال المجنّح واللمسات الرهيفة . صار شأنها شأن أي موظف في هذا المكان ، يؤدي ما يُطلب منه دون مناقشة ، ودون استقراء لكفاءاته ومواهبه .

ولكن المشكلة الأهم في وظيفتها هذه ليست في اختلاف الأذواق ، ولا في ما يؤرّثه الحسد ، وإنما في الخوف المدمّر من غلط الآخرين ، أو من سوء مقاصدهم ؛ فمن يدري ماذا يُخبّأ في هذا المكان من مكائد .

قلق وتوجّس متواصلان ، ومصير مرهون بمزاج لا يُعرف مداه .

ظل ، وهي في هذا الوضع الذي لا مخرج منه ، ولا وسيلة لتفاديه ، ينحتُ في تكوينها الذي صرفت سنواتها في تنسيقه وتثقيفه وتنظيفه من أية شائبة ، وإعطائه تلك الصورة الطليعية البهيّة الأخّاذة .

تغيّر زمانها وعلاقاتها ؛ لم تعد تحضر لقاءات أصدقاء العمر من الفنانين والأدباء الذين كانت تقضي معهم أجمل أوقاتها ، ولم تعُد تعقد اللقاءات الحميمة في بيتها ، تجنّباً للسؤال والجواب ، وتفادياً لزلّة اللسان ، وخوفاً من التخريجات المبطّنة . وفرغ دفتر مذكراتها من تلك اللمحات الصريحة التي كانت تسجلها تعقيباً على ما يدور في محيطها الأليف ، ولم تسعفها ذاكرتها المعوّقة على تذكّر الكلمات الثلاث المشطوبة في دفترها الأثير . غاب التعامل البريء الذي اعتادته في كتاباتها منذ صغرها ، والذي كان والدها الشاعر يدربها عليه ، ونشأ إحساس مكتوم بحضور عوائق ستعطل عليها لذة العمل وتتحكم في سياق أفكارها .

أين فريد الله ويردي وعلي الشوك وحافظ الدروبي ومظفر النواب ومحمد غني ولميعة ورشدي العامل ؟ كيف سيفسرون غيابها وهي الحاضرة في مجالسهم بشكل منتظم ؟

قالت لرشدي ذات يوم :

- تبدو أنيقاً هذا اليوم ، لا بد أن يكون هناك موعد مهم !

- طبعاً . كنت أتوقع حضورك .

أطرقت حياءاً ، ونظرت إليه معاتبةً ، وراح الأصدقاء يواصلون الملاحظة بالتعليق ؛ حتى انطلق حافظ بإلقاء نكاته التي انتشلتها قهقهاتهم من حرجها ، واستعادت مزاجها .

●

هذا اليوم ، مرت دعوة العشاء بسلام ، لم يعطس الرئيس من فرط التوابل ، ولم يشكُ من مغص أو عطش أو صداع ، ولم يعلّق على هيأة الصالة ؛ وبالطبع لم يشكر أحداً على شيء .

وطّنتْ نفسها على التعامل مع القلق في انتظار معجزة قد تجيء وقد لا تجيء .

نام الجميع ، ولم يواتها النوم إلا عند الفجر .

■

كلمات مشطوبة

في صفحة من دفتر مذكراتها ، كانت هناك ثلاث كلمات مشطوبة بشكل عصبي متعمّد أدّى إلى تعمية الحروف تماماً ؛ لم تكن تلك عادتها ، كانت تشطب على الكلمة وتسترسل في الكتابة . في هذه الصفحة كانت الكلمات مطموسة تماماً ، مشطوبة بقوّة ، وآثار سن القلم غائرة على الورقة التالية بشكل واضح .

أرادت أن تتذكر هذه الكلمات فلم تسعفها ذاكرتها ، فقد مرّ عليها وقت طويل حافل بالأحداث والملابسات والمواقف . أحسّتْ بتوتّر شديد ، وتوالت أمامها أحداث ذلك اليوم والأيام التي تلته . ورغم أن ذلك الزمن مسح كثيراً من التفاصيل ، رأت نفسها تسقط فجأة في جوّ ذلك اليوم .

كانت ملامح ذلك اليوم تومض شاحبةً في ذاكرتها وتهرب ، ثم تلوح بشكل خاطف لا يسعفها على التقاط التفاصيل ، ثم تهرب .

أحياناً يكون نحول الذاكرة معذّباً ومثيراً للقلق ، قلق لا مبرر له ، ولكنه يحضر بشكل لا مفرّ منه ، وقد حضر الساعة .

اليوم تتصفح بتول دفترها الأثير ، تعرف أن شطب تلك الكلمات كان لأمر ما ، ولكن ما هو ؟

هل كان ذلك لصيانة حالة اجتماعية ؟ أدبية ؟ سياسية ؟ لم يكن في وضعها الإجتماعي ما يوجب ذلك ، كما لم يكن للأدب ومشكلات اللغة والأسلوب شأن فيه ، أما السياسة فلم تكن من همومها .

« أشتاق إليك يا حبيبي »

أضاءت في ذاكرتها مثل وميض البرق ثم اختفت مثله . ولكنها فتحت في ذاكرتها أيام الجامعة ، والخلوات التي كانت تجمعهما معاً وهما في الطريق إلى البيت بعد انتهاء الدروس . ورغم طول المسافة بين الجامعة وبيتها ، لم يكن بينهما غير الحوار العام الذي ودّت لو يزحف يوماً إلى ما هو أبعد وأخصّ ، وهو ما حملها على تدوين هذه الهمسة اللاهفة التي انتبهت فيما بعد ، أنها خارج ما درجت عليه ، فشطبتها .

هذا الحرج من الصدق كان يفسد طبيعة الأمور ، ويفرض نوعاً من الإنتقائية المحفوفة بالتردد ، والمهددة لسياق الحقيقة ، وليس بمستطاع أحد أن يزعم أنه كان صادقاً كل الصدق في ما قال .

من جانب آخر ؛ كان يضنيها هذا الحوار المجاني الذي كان

موجوداً في محيط الطلبة ، كانت تراه ثرثرةً وضياع وقت . لم تستطع المشاركة في كثير من جوانبه ، كانت تودّ أن يستمر الحوار على ضفاف ما يدرسونه ، لا على مقاسات القمصان وتقلبات المودة وأي المخازن أجدر بالزيارة .

« أشتاق إليك يا حبيبي » !

●

بتول حمدي الشاعرة التي لم تكتب سطراً ، والرسامة التي لم ترسم خطأً ، كانت شاعرة فنانة بامتياز ؛ كانت تجاوزت الثلاثين قبل سنوات قليلة . جميلة أنيقة شفافة مشحونة بثقة داخلية وحيوية هي أبرز ما يميّزها عن الأخريات . بدلتها البُنيّة ذات الأكمام القصيرة تشدّ خصرها النحيف وتنسدل هفهافةً على وركها المتوازن . فراشة حقيقية ، تتسرب عذوبتها إلى الآخرين فتغمرهم بمزيج من المحبة والاعجاب الذي يعرقل نوازع النفس الملتوية أمام شابة فاتنة مرهفة رقيقة المزاج .

■

حميد البزاز

أمورٌ كثيرة تجري في البصرة يستقبلها الناس بتلقائية وبساطة لا تستدعي التأمل والمراجعة ، ذلك لأنها اندرجت ضمن سياق الحياة اليومية ، وصارت مألوفةً ككثير من الأمور الجارية .

وأهل البصرة ، مثل أهل المرافيء الأخرى ، معروفون بالتسامح والتعاون وتناول الحياة بدون تعقيدات . ولم يكن من الضروري ، مثلاً أن تكتب على ظرف الرسالة تفاصيل الشارع والمحلة والزقاق كما هو جارٍ في أيامنا ؛ كان يكفي أن تكتب الاسم مقروناً باسم المنطقة ، العشار ، السيف ، المعقل ، إلخ . فتصل الرسالة إلى صاحبها .

وهي مثل كل المرافيء ، تستقبل كل يوم العشرات أو المئات من الوجوه الغريبة التي تأتي بها السفن البخارية والشراعية والبواخر التجارية الكبيرة والقطارات والطائرات ؛ من الزوار والوافدين من مدن العراق الأخرى ، والمهربين واللصوص ، من خارج البلاد

وداخلها ؛ كل يوم . ولم تعُدْ أسئلة «ماذا ، ولماذا» تأخذ من اهتمامهم الشيء الذي تعرفه المدن الأخرى . ولكنهم رغم هذه المرونة ، يعتدّون برؤيتهم الخاصة وتفسيراتهم الشخصية لما يجري حولهم من أحداث وعلاقات ، ويعتبرونها من خصائص المدينة التي لا يفصحون عنها ولا يثرثرون بها .

حتى الأمور الناشزة تُستَقبَل ببساطة ، فالناس منفتحون على آفاق تتضاءل أمامها موجة التأويلات والتخريجات والاشاعات التي تكوّن لدى الآخرين همّاً يومياً يَشغَلُ حياة الناس . فما من أحد يتساءل لماذا يمضي حميد البزّاز من محله في سوق البزازين إلى أقصى سوق اللنگات (وهي سوق الملابس المستعملة المستوردة من أوربا) مخترقاً مجموعة من الأسواق والمخازن ، ليصل إلى سوق الحصران حيث تفوح رائحة الخوص والچولان والجوت المرشوش بالماء والموحي بالانتعاش لاقترانه بظروف القيلولة التي لا غنى عنها ، والتي تترطب فيها حصران الچولان ، فتضوع منها نفحة نباتية نفّاذة ولكن أليفة ، تدعو إلى الاسترخاء في صيف البصرة المحتقن بالرطوبة في لبّ الصيف .

دكان حميد البزّاز محاط بالعديد من دكاكين الخياطين والروّافين وباعة الخيوط والأزرار والتوابل وغيرها من الدكاكين ، ولكنه مع ذلك ، يترك دكانه مجتازاً سوق البزّازين والقصابين

والعطارين ، عابراً الشارع إلى سوق القماش ، فسوق الهرج ، فسوق الصيارفة ، وسوق اللنگات ، ثم ينعطف يساراً إلى سوق الحصران حيث يجد خيّاطه المفضّل في منتصف هذه السوق .

وما إنْ يتنصّل من سوق اللنگات حتى تستدعيه لافتةٌ بارزة هي الوحيدة في سوق الحصران :

خياطة عبّود

ملكي - عسكري

الخياط الخاص لمتصرفية اللواء

ولا أحد يعرف ماذا يعني عبود الخياط بـ (الخياط الخاص لمتصرفية اللواء) . ولكن حميد البزاز يعرف أن صديقه عبود خاط مرةً بدلة لسائق المتصرف ، ودُفع ثمن الخياطة من ميزانية المتصرفية باعتبارها من مخصصات السائق الرسمية ، فالتمسه عبود أن يجيز له استخدام هذه العبارة لأغراض الدعاية ، فأجازه ، وهكذا صار عبود (الخياط الخاص لمتصرفية اللواء) . وبما أنه في سوق الحصران ، وليس في سوق الخياطين ، ولا أحد يتوقع وجود خياط في هذه السوق ، فلا أمل لمحاسبته على هذا الاستثمار غير المرخّص به . ولكن العبارة كانت ذات رنين خاص جلب له عدداً لا بأس به من الزبائن .

حميد البزّاز كان صديقاً قديماً لعبود الخياط ، قبل تعليق هذه اللافتة ، وكان يأتيه في مواسم تجديد الثياب دون النظر في امتيازه الجديد الذي ثبّته على اللافتة الكبيرة الوحيدة في سوق الحصران .

اجتاز حميد هذه الاسواق والممرات كلها ليصل إلى صديقه الخياط ، وكان أولاده يتدحرجون قدّامه مأخوذين بهذه المناسبة السعيدة ، ويتلفّتون إليه بين الحين والحين للاطمئنان على كونهم يمشون وفق ما يحب .

●

في دكان عبود الخياط ، تحت اللافتة البارزة ، دارت مجاملات اللقاء بين الرجلين على رنين ملاعق الشاي الفوّاح ، في حين انصرف الطفلان إلى احتساء (سيفون زمزم) بتذوق وانتشاء .

ولكي يؤكد عبود لصديقه أن أعماله جارية على ما يُرام ، لامه على تأخره في الاتيان بالاطفال في هذا الوقت الحرج الذي تزدحم فيه الأشغال ، ليأخذ مقاساتهما ويفصّل لهما دشداشتين سوداوين بمناسبة عاشوراء الذي سيحل بعد ثلاثة أيام . وقد فرح حميد البزّاز بكون الأعمال جارية عند صديقه الخياط ؛ ولكنه كان مطمئناً إلى أن الدشداشتين ستكونان ، كالعادة ، جاهزتين في الأول من شهر محرّم .

قاد حميد البزّاز ولديه احمد وصادق ، ممسكاً بيديهما ، بيديه اليمنى واليسرى ، ومحاولاً الاجابة عن الأسئلة المتتالية لهما عمّا إذا كان هناك حزام من الجلد الأسود ، وهو ما يطمحان إليه ، أم أن عبود الخياط سيزودهما بحزام قماشي أسود ، أم أنهما سيربطان خيطاً أسود على خصريهما كما جرت العادة ، وأسوة ببقية الأطفال .

■

حميد البزّاز ابن السوق

حميد البزّاز كان ابن السوق ، يعرف كل دقائق العمل وملابساته ، فقد بدأ بائعاً متجوّلاً للأقمشة ، يشتريها من التجار وينسقها ويضعها على عربة يدفعها ويطوف بها على البيوت ، منادياً بصوت هادىء مسموع تعرفه نساء الحارات اللواتي يتحلّقْن على عربته ويُفْرِدْنَ لفّات الأقمشة ويقلبنها ويتركنها منشورة وهنّ يثرثرن ولا يكفُفن عن التعليق على أنواع النسيج وحجومه وألوانه وملاءمته لأغراض دون أخرى ، وحميد يصغي بصبر مقدّماً لفّةً إثر أخرى ، شارحاً ومشجّعاً ومحاولاً تنسيق اللفات التي قد تكون أفرِدت بأجمعها . والحقيقة أن عربة حميد تكون مناسبةً للقاء الجارات والثرثرة التي قد لا تنتهي كما يحب حميد ، فكثيراً ما أفرَد ولملم دون أن يحظى بغير الثرثرة .

هكذا يبدأ نهاره حتى الظهر ويعود إلى البيت فيتغدّى ويُنهي قيلولته ثم يغادر إلى مخازن التجار فينتقي ما يناسبه من الأقمشة لليوم التالي .

حياة يومية رتيبة خالية من المفاجآت ، يغذيها حميد بفوائد معرفية بشؤون السوق وأسراره مما يسمع من أحاديث التجار وأرباب المهنة ؛ وهو في هذا السياق يوفّر الدرهم والدينار تطلعاً إلى يوم يكون فيه بزّازاً ذا دكان مستقل ، وربما تاجراً ذا خان .

بعد سنوات قليلة صار حميد بزّازاً ، فتح دكانه في أقصى سوق البزازين الذي يشكل من يمينه امتداداً لمجموعة من الأسواق والمؤدي من شماله إلى القشلة في العشار . وكان حريصاً على الابقاء على زبائنه القدامى ، يعْلِمهم بالجديد مما يصله من الأقمشة ويرغّبهم فيها .

وإذ استقرّ به المقام في محله الجديد وتوافد عليه زبائنه القدامى والجدد ، ودارت عجلة العمل ، راح يتطلع إلى أن يكون مستورداً وموزّعاً للأقمشة . وبدأبه وحرصه استطاع أن يحقق حلمه هذا خلال السنوات الملتهبة التي أعقبت الحرب الثانية . صار له محل مرموق في سوق الهنود ، أو سوق المغايز كما كان يُطلَقُ عليه ، وعُدَ من جملة تجار البصرة المعروفين ، بعد أن انتمى إلى غرفة التجارة ونجح في انتخاباتها ، وكسب مناقصة تجهيز معسكر محمد القاسم والقوّة الجوية بالأقمشة اللازمة . وبحكم العلاقة التي قامت بينه وبين بعض الضباط أوشك أن يشتري بعض السكراب المتخلف عن الحرب لولا تدخّل شفيق عدس الذي اشترى مخلفات الحرب

جملةً وشحنها إلى اسرائيل ، وكان ذلك سبباً في إعدامه في وقت لاحق . ومن يومها قرر حميد البزّاز أن يكتفي بتجارته الرابحة ويقلص طموحه في حدود ما يعرف .

■

سنية

لم تكن مفاجأة أن يتزوج حميد البزاز أخت زوجته التي ماتت قبل أشهر قليلة ، فذلك هو السياق المقبول اجتماعياً ، وهو ما يُفترض أن يكفل استمرار الحياة اليومية للعائلة ، ويضمن لأبنائه حناناً من خالتهم يعوّضهم عن حنان أمهم الراحلة . وكان على سنيّة الخياطة الشابة المعروفة بحيويتها وأنوثتها المتوقدة وغنجها ودلالها ، أن تقبل بهذا الواقع المفروض لغرض واحد ، هو الوضع المالي الممتاز لحميد الذي يكفل لها إرضاء رغباتها ، ويستجيب لما تحب ؛ كما يضمن لها السيطرة على حميد بدالّة شبابها وكونها أصغر منه بسنوات . وهكذا سُحب الستار على العلاقة السرية التي كانت قائمة بينها وبين الطبيب الشاب الذي لم تلمس منه ما يوحي برغبته في الزواج منها . وظن حميد من جانبه أنه بهذا الزواج سيدفن قصة علاقتها بالطبيب التي كان يشك فيها ، ويحفظ للعائلة سمعتها المتوازنة .

●

صار مألوفاً أن تتوافد بين يوم وآخر صديقات سنيّة وجاراتها إلى قبولاتها المتواصلة ومناسباتها التي تختلقها وتقيم لها الولائم والنزهات وزيارات أضرحة الأولياء ، من السيد كرم القريب من المعقل ، إلى علي الشرقي ، وما يرافق ذلك من مرح وفرح وشقاوات . كما صار مألوفاً مرورها بالأسواق لانتقاء الهدايا والتحف التي تقدمها للصديقات ، مما جعلها زبونة ممتازة للكثير من أصحاب المخازن والدكاكين الذين كانوا يدّخرون لها أجود بضائعهم ، وينتظرون مرورها والتمتع بطلعتها ومرحها وما تشيعه في أجوائهم من بهجة ، وتثيره فيهم من نوازع واشتهاء .

كانت عباءتها الحرير تلتف على جسدها الفتي موحيةً بما تحتها ، وكان كلاب فوطتها الذهبي ينزلق بأمر سحري عندما تكون في مخزن الأحذية ، فتلتقطه بهدوء وأناقة لتعيد ترتيب الفوطة وتشكله في موضعه ، كاشفة عمّا وراء خدها الصقيل من خصلات شعرها الذهبي المعطّر ، في حين يكون جبّار ، صاحب المخزن ، مستسلماً للذة كانت ترصد غليانَها وتصاعُدَها فتؤججها بازاحة أخرى لطرف ثوبها بحجة تجريب الحذاء ، وتمد ساقها مولية ظهرها باب المخزن ، غارقة بعذوبة مخدّرة للمساته التي تبدأ من القدم وتتصاعد بخفّة إلى الركبة . كان ذلك كافياً لإثارة متعة مجانية بدون عواقب ؛ ففي مدينة مثل البصرة وأهلها المجبولين على

الحياء ، تُستَرَقُ المتع الصغيرة وتُشيع فرحاً يملأ النفس بالرضا . وقد يكون بالنسبة إلى جبار وأمثاله ، ينبوعاً من البهجة التي تصل إلى مرتبة المغامرات واجتراح المآثر التي يتبجّح بها ويتحدث عنها بإيماءات وألغاز لا يعرف دلالتها سواه ، فللسر حرمة وحدود لا ينبغي اختراقها .

●

لم تتخلّ سنية عن مهنة الخياطة ، حولّتها من مهنة تطمع بموردها إلى هواية . راحت تواكب خطوط المودة من خلال مجلة (بُردى) ، وتقلد تصميماتها الأكثر تعقيداً وحداثة . ولم تكن شحّة المواد الأولية عائقاً لها ، كانت توصي صديقاتها الذاهبات للاصطياف في دمشق أو بيروت أو اسطنبول بشراء أصناف من الأزرار والأشرطة والأصداف وخيوط الذهب وقصب السيلان وغيرها ، فتعكف عليها مبتدعة ما يناسب ذوقها من المودة . وكان لبدلة الزفاف التي خاطتها لبنت الحلاوي شهرة بين النساء . وبمرور الزمن صار لاسمها صيت في هذا المجال ، حاولت أن تبقيه في إطار العائلات الراقية فقط .

■

الزملاء الثلاثة

كانوا ثلاثة زملاء في القسم المسائي في ثانوية البصرة ، يخرجون معاً بعد انتهاء الدروس ويتجهون أولاً نحو ساحة أم البروم مارّين بجسر المتصرفية ، متوقفين قليلاً عند زرزور ابو الحب ، حيث يتزودون منه بشيء من البزورات يتسلون بها في طريقهم إلى نادي الاتحاد الرياضي الملكي .

كريم وناصر وراضي محمود ، ناصر كان فأرة كتب ، يأتيهم كل يوم بنبأ عن كتاب صدر حديثاً ، وينقل إليهم ما يدور في الوسط الأدبي في بغداد وغيرها من العواصم العربية ، ويأخذ بحديث حماسي عن سلامة موسى وشبلي شميّل وبرنارد شو وفرويد ، وعمّا يجري في بغداد من مناقشات عن نازك الملائكة وبدر السياب وما يدور في الأوساط من تقديم هذا على تلك ، وأهمية مجلة (الآداب) ، ومحاكمة حسين مردان ، وغير ذلك مما يدور في الأوساط الثقافية . ولكن ناصر رغم حماسه هذا واطلاعه الواسع لم يكن يجرب الكتابة أبداً .

ويكوّن ناصر وكريم الثنائي الأكثر شطارة في الصف ، والأنشط في متابعة ما يجري في الأوساط الثقافية ، في حين لم يكن راضي يتمتع بأية من تلك المزايا التي يتمتع بها زميلاه ، فهو من بيئة شعبية لم تنل من التعليم ما لسواها ، ولكنه كان شديد الشغف بصحبتهما ، يصغي بانتباه إلى الحوار الحماسي الذي يقوم بينهما ويحفظ أطرافاً منه ، حتى صار يعرف بعض الأسماء الأدبية التي كانت تملأ تلك الأيام ضجيجاً . ولقد سارع إلى شراء نسخة من ديوان (قصائد عارية) لحسين مردان ، بمجرد سماعه بموضوعاته والضجة التي قامت بسببه ومحاكمة شاعره . وبدأ يتخلّى عن بعض محفوظاته المرتبكة من أشعار وأمثال كان يسمعها من هنا وهناك ، وخصوصاً من أبيه ؛ راح يحفظ نصوصاً جديدة يسمعها من زميليه ، وأعجبه شعر بلند الحيدري الذي كان كريم يترنّم به :

وتصافحتْ أيدٍ كثارْ

إلا يدي ،

كانت مهيّأةً لأجمل موعدٍ .

ولكن إعجابه كان أشدّ ببيتين لعدنان عبد القادر :

برزتْ مثلما تدفّقَ نبعٌ

ثمّ نطّتْ كما ينطّ الغزال

فسَرَتْ في النساء غيرةُ أفعى

وتلوّى من الحنـــين الرجالُ

وكان ناصر وكريم يأنسان كثيراً بصحبته للطفه وعدم تطفله ، وانتباهه إلى ما يجري بينهما من حوار . وربما جال في فكرهما أنهما يثقفانه ، مما يجعلهما يحسّان بشيء من المسؤولية إزاءه والسرور بنمو ثقافته دون استعلاء .

يتوقفون أحياناً عند مقهى ابراهيم حَبَش المطلة على نهر العشار الجميل ، يلعبون الدومنة ، أو الشطرنج الذي يفرد راضي على جهة ويجعله يلوب بانتظار نهاية الدور بينهما . وقد يستمرون في المسير حتى ساحة أم البروم ، ثم ينحرفون يساراً إلى نادي الاتحاد الرياضي فيتناولون لفّة الكباب ويلعبون البليارد أو كرة المنضدة ، وهي ألعاب ثنائية تجعل راضي يتطلع ويشجّع اللاعبَين ، حتّى يأتيه الدور .

●

انتهت الأدوار وركن الأصدقاء يستعرضون بهمس ما يجري في المدينة وفي البلد إجمالاً . كانت الإضرابات والإعتصامات في كل مكان ، والبصرة تغلي ، شأنها شأن مدن العراق ؛ والناس تريد من

الحكومة أن تتضامن مع مصر المهددة بالعدوان . صار الحديث عن الوضع يتجاوز الهمس إلى الغضب ، إذ لا يمكن للعراق أن يبقى متفرجاً على ما يجري في مصر ، وفي العراق أيضاً .

في طرف آخر من المنطقة ، وفي مدرسة الرجاء العالي (مدرسة الأمريكان) ، كما كانت تسمّى ، كان نشاط طلاب المدرسة المسائية المتعاطف مع مصر ، يشتعل في كل مكان . إضراب وتجمّع في ساحة المدرسة ، وانتظار لخطاب نوري السعيد الذي سيوضح موقف الحكومة مما يجري . كان جو متوتر يسود النادي ومن فيه .

بعد انتظار استنفد صبر الناس ، أعلن نوري السعيد بأن «دار السيد مأمونة !» . وكانت تلك صدمة لم يحتملها الناس .

فجأةً تسلل راضي من المجلس ، وغادر المكان .

■



عبر كريم جسر (سورين) الواقع في نهاية سوق الهنود ، أو سوق المغايز كما يُسمّى ، أو سوق النهود كما يسميه بعض الظرفاء ، وسلك طريقه اليومي المألوف بمحاذاة نهر المَدّة ، متّجهاً إلى ثانوية البصرة المسائية ، وفي ذهنه مشروع قصيدة التقط بيتيها الأولين ، وهو يدوزِن بصمت أبياتها القادمة ؛ كانت قصيدة غزل على أسلوب محمد سعيد الحبوبي ، خيال لا يسنده واقع ، وصور لفظية يأخذ بعضها برقاب بعض . كان سعيداً بها ، رغم إحساسه بكونها قصيدة يكتبها لنفسه وسيقرأها على زميليه في المدرسة وليس على الحبيبة الموهومة .

عندما انتهى به الشارع إلى جسر المتصرفيّة انحرف يساراً باتجاه الثانوية ، وما إن أطلّ على نادي الطلاب حتى التقاه جاره ابراهيم الواقف في طرف الشارع ، واقترب منه حتى كاد يلتصق به ، وهمس له :

- كريم لا تروح ، هناك إضراب في المدرسة .

فوجيء كريم بهذا الطلب ، لم يدر بماذا يجيب وهو يعرف ما يشاع عن ابراهيم من مواقف سياسية دفعته مرتين إلى السجن .

تمتم بكلمات مبهمة وسار في اتجاه الثانوية .

هناك رأى الطلاب متجمّعين في الساحة الواسعة ، وفي الطابق الثاني الذي يقع فيه صفّه ، وعلى السلالم الموصلة إليه ، رأى المحرضين يتجولون بحيوية ونشاط بين الطلاب .

وصل إلى صفّه ولم يدرِ ماذا يفعل ، إنها المرة الأولى التي يواجه فيها موقفاً كهذا ؛ ولكن إحساساً اخلاقياً بكرامة الموقف دفعه إلى الاندماج في المجموعة . وما إن قُرع الجرس حتى دخل الصف مع الآخرين ، وأغلقوا عليهم باب الصف وأعلنوا الاعتصام حتى تجاب مطالبهم التي يتفاوض بشأنها قادة الاضراب في الطابق الأرضي .

لم تكن مطالبهم أكثر من التضامن مع زملائهم المضربين في المدارس والكليات في أنحاء العراق .

بعد يومين من الإضراب استدعيَ كريم شاهداً إلى لجنة الإنضباط في المدرسة . كانت المسألة تتعلق بشكوى مدرّس الجغرافية على الطالب توفيق وزعمه بكون توفيق محرّضاً على الإضراب ، وقد اشترط المدرّس على استقدام طالب مجتهد ومحايد لتعزيز موقفه . كان كريم ذلك المجتهد المحايد الذي رشّحه المدرّس . وأمام لجنة

الإنضباط ، أعلن كريم أن ليس لتوفيق أية علاقة بالتحريض على الاضراب .

قامت قيامة المدرّس ، فصرخ : «هذا أيضاً منهم»!

ولكن الأمر فات عليه ، فهو الذي اختار هذا الشاهد ، وعليه أن يقبل بما يقول .

أحسّ كريم بالرضا فقد أنقذ توفيق من الفصل ، ولم يكذب ، فهو لم يرَ توفيق يحرّض الطلاب ، وإن كان لا يستبعد ذلك . وهذا ما جعل فرحة الرضا ترافقه إلى البيت ، إلى الفراش ، فأن يكون (منهم) يعني أنه غادر صمته وانتسب إلى جماعة هي موضع تقدير الناس واحترامهم ، وعليه أن يحترم موقعه الجديد الذي جرّ عليه الكثير من المشاكل ، وكان راضياً بما اختار .

■

موت حميد البزاز

مات حميد البزاز ، ومرّت أربعينيته ، وعادت سنيّة من النجف وأقامت في بيتها مجلسَ عزاء وندب لمَّ القريبات والصديقات والجيران من النساء اللواتي جئن لمواساتها وتخفيف حزنها .

تصدّرَتْ سنية المجلس مسبلةً جدائلها الحريرية على كتفها وصدرِها المفتوح ، ومدّت رجلها اليمنى على مداها وثَنَتْ اليسرى تحتها ، وراحت تلطم الأرض بيديها وترفعهما فتلطم وجهها وصدرَها المكشوف وهي تولول وتندب بعبارات مبتورة وغير واضحة ، في حين قامت إحدى الجارات ومسحت جبينها وقدمت لها سيگارة ودعتها إلى التخفيف من حزنها والقبول بقضاء الله .

لاحظتْ إحدى المتخابثات أن بدلة سنية السوداء أنيقة جداً .

قالت الأخرى :

- هذي بدلة سهرة ، مو بدلة عزا .

والواقع أن سنية خاطت لنفسها ثلاث بدلات سود على أحدث تصاميم (بُردى) . ومع أنها كانت خالية من الزركشات والأزرار اللماعة إلا أن الدانتيل الأسود عند العنق ومجرى الصدر وأطراف الأكمام كان لا يخلو من إثارة . وأجرت سنية تعديلاً آخر على فوطتها فاستبدلت الأقراص الفضية اللماعة (اليُلَكْ) في أطرافها بأقراص سوداء زادتها تكاملاً وغموضاً .

هل كانت سنيّة تمهّد لمستقبلها المتحرر الذي كانت تصبو إليه والذي أسعفها الحظ بتوفير خطوطه الأولى لها ؟

تساؤلٌ مُضمَر خطر في بال تلك المتخابثة المطلّقة التي حسدت سنيةَ على فرصة تحررها من التزاماتها الاجتماعية ، وتمنّتْ في نفسها لو كانت في موقعها ، إذن لقلبتْ الدنيا ، وفعلت أكثرَ مما تُضمره سنية في نفسها . ولأنها لا تستطيع ذلك في الواقع ، لألف سبب ، قررتْ أن تُبقيَ علاقتها بسنية مفتوحةً ، وتوطّدَها ، وتتابع تحولاتها ، وتشجعها على ارتياد المواقع الأكثر خطورةً وإثارةً مما تستطيع هي أن تفعله .

قالت لها ذات يوم :

- إسمعي سنية ، إنت خياطة بارعة ، وتصاميمك تأخذ العقل ، ما الذي تنتظرين من البصرة ؟ روحي إلى بغداد واعرضي

تصاميمَك الجميلة هناك ، وخذي مداركِ بين المصممِات ؛ سميرة ليست أحسن منك ، ولكنها أعرَفُ بأمور الترويج والتسويق . روحي وجرّبي ، فالبصرة لا تعطيك شيئاً ، لكن بغداد ، ماذا أقول لك ؟ إنها أفق مواهبك ؛ روحي . . جربي .

تنبّهَتْ سنيّة إلى هذه الملاحظة ، رشّحَتْ منها عواملَ الحسد ، وصفّتْها ، واستخلصَتْ منها الحقيقة الأساسية ؛ وهي أن البصرة محدودة الأفق ، وأن العاصمة هي الميدان الأرحب ، ليس لمشاريعها الفنيّة وحدَها ، وإنما لمشاريع لا حدودَ لها مما يغازل لياليَها التي صارت تزدحم بالأحلام .

■

بتول تغادر بغداد

احتشد أفراد العائلة كلهم في المطار لتوديعها . فها هي بتول حمدي تحقق رغبتها التي طالما دار الحديث عنها ، والأحلام التي كانت تساورها وتسردها عليهم ، وآراءها ومقارناتها بين أساطين العمارة وعمالقة الفن والأدب ممن ملأوا رأسها بالحضور ؛ گاودي كوربوازيه ، ڤان كوخ ، گوگان ، سارتر . بروتون ، اللوڤر ؛ أسماء تلو أسماء كانت تحتشد في ذاكرتها وتؤلف ذلك النسيج المعرفي والعالم الفسيح الذي تتجول في أرجائه مبهورةً مأخوذة بفاعلية الحضور والتجاوز ، حالمة بتواضع واطمئنان بأنها ستندرج بصيغة ما ، في وقت ما ، في دفتر زمانها . وهي في أحلامها المتواصلة لا تكفّ عن المحاولات التطبيقية لتلك الأحلام ، جاعلةً من محيطها المنزلي مجالات لذلك ، بادئةً من التوجيهات الصارمة لفلاح الحديقة وصولاً إلى تسلق السلّم المتنقّل الذي تطوف به أرجاء البيت تاركةً لمسة هنا ولمسةً هناك ، معتبرةً ذلك تطبيقاً عملياً لما درسته وقرأته .

وعلى سَعَة البيت وحديقته ، لا تكتفي به ؛ كانت تريد مساحةً حرّةً منفتحة تحتضن مغامراتها ، ولا تريد أن تصرف وقتها في إصلاح وتعديل الوضع الذي ليس من صنعها . ومع ذلك ، أجرت الكثير من التعديل على أثاث المنزل ومحتوياته ، وقد حملتها مغامرتها ذات يوم على تفريغ صالة الاستقبال من كل محتوياتها لتعيد طلاء الجدران بألوان أخرى . قال أبوها وهو يري الفوضى في البيت :

- يا بتول ، عندي ضيوف بعد يومين ، أين سيجلسون ، ولماذا تغيرين الألوان ؟

قالت بمرح :

- بابا ؛ هذان سؤلان ؛ جواب الأول : سيجلسون هنا . وجواب الثاني ؛ هو أن حيطان الصالة عالية جداً ؛ طلاء السقف بلون أعمق من لون الجدران سيخفف الاحساس بارتفاعها ، ويمنحها شعوراً بالالفة أكثر .

من يستطيع أن يرد طلبات بتول ، ويعرقل رغباتها ؟!

●

أخيراً ؛ ها هي تندفع إلى مكتب الجوازات في المطار .

صديقتها الحميمة ريم التي كانت في موجة فرح غامر ، كانت آخر المودعين :

- بتول ، حبيبتي ، لا تنسيني ، اكتبي لي عن كل شيء .

- طبعاً طبعاً ، هل يُعقل أن أنساك يا ريمة ؟

- تنسين يا بتول ، باريس ستنسيك كثيراً من الأمور ، خليني في بالك .

عانقتها وضغطت على ساعدها ، وراحت تلوّح لهم بيدها وهي تدلف إلى السوق الحرة .

تجولت في السوق بين عشرات البضائع المعفاة من الضرائب ؛ ماذا تأخذ منها إلى باريس ؟ ولمن تأخذ من هدايا ؟ أصدقاؤها مجهولون الآن ، وهي تفضّل أن تشتري لنفسها بضاعة من مصدرها ، من أم الدنيا ، باريس .

اكتفت بمرطّب للشفاه من إنتاج (ديور) ، وقعدت تنتظر .

عشرات من الرائحين والغادين يمرون بها وهي سارحة في تصوّر ما سيكون من أمر هذه الرحلة التي حلمت بها . فكّرت في جدوى الأسفار وقيمتها ، لم تكن ميّالةً للسياحة قدر ميلها إلى الاكتشاف والتعرّف على طبائع الأمم وتجاربها في المحيط الانساني ، واتصال

ذلك بسلك تطلعاتها إلى التفاعل الحي مع هذا العالم الذي لا يأخذ أبعاده إلا بالاضافة والتغيير وابتداع المنافذ لفضاء أوسع وأكثر انفتاحاً على الدنيا والحياة .

كانت تعرف أنها من طراز مختلف ، وكانت تريد هذا الاختلاف ، ولكن ليس كيفما اتفّق ، كانت تريد أن تجعل لهذا الاختلاف معنى ودلالات ، ولذلك أشرقت في رأسها مجموعة متضاربة من السيناريوهات التي لم يعد بمقدورها تفضيل بعضها على بعض .

- على المسافرين إلى پاريس في الرحلة ٢١٨ ، على الخطوط الجوية العراقية ، أن يتوجّهوا إلى الطائرة .

■

سنية في بغداد

وإذن فها هي ذي سنية في بغداد ، مع ابنتها التي بدأت سنتَها الأولى في الثانوية . جاءت بكل عنفوانها وأحلامها ، وبشيء من رصيدها الضخم ، واشترت بيتاً واسعاً في محلة ابو قلام في الكرادة الشرقية ، يطل صالونه على الشارع الفاصل بينها وبين نهر دجلة .

مسحت كل المعالم القديمة للبيت ، أزالت جدران وأقامت غيرها ، أبدلت الأبواب ، اكتسحت كل التأسيسات الصحية والكهربائية ، وأنشأت تأسيسات جديدة . أفردت مقطعاً من الواجهة المطلة على دجلة وجعلتها شرفةً زيّنتْها بالشجيرات والورود ، وجهّزتْ البيت الذي أسمته (الجنينة) بكل ما يلزم من وسائل الراحة الكفيلة بحياة حالمة ؛ ولم تنسَ أن تخصص جناحاً حميماً ينفتح من زاوية غامضة في صالة الاستقبال على ممر قصير يُفضي إلى ركن هادىء ناعم ذي أثاث وثير ، وقوس شرقي يخفي وراءه مقصفاً مزوّداً بكل ما تتطلبه الليالي الحالمة .

هنا ستستقبل ضيوفها وتُغدق عليهم من كرمها وأنوثتها ما لا يُضاهى .

كل الحياة لي ، كل المباهج ، كل الأحلام ، كل الحريّة ، كلها ، كلها . لن أترك للأحزان منفذاً ، ولن أترك للذاكرة أن تستعبدني ، ولا للجد المفرط أن يبعثر مباهج الواقع البسيطة .

ها أنا ذي ؛ سنيّة بنت الحاج صاحب ، في جُنَيْنتي ؛ تعالَي يا حياة!

●

وتأتي الحياة ، ويتوافد على جنينتها أصناف من الرجال والعوائل من أطياف شتّى ، ومن طبقة منتقاة ، حرصت على أن تكون من نخبة البلد ؛ فنانين أدباء صحافيين مفكرين ، شبّان رافضين ، إنما ، وهذا من شروطها الخاصة ، لا رجال أعمال ولا أرباب مصالح ولا سياسيين .

لم تكن منفتحة على كل من يدخل الجنينة ، كانت الجنينة مختبراً للانتقاء ، ولم يتسلل منها إلى الركن الحالم بعد أي شخص .

لولو ، وهو الاسم المحبب لابنتها ليلى ، كانت تنزوي في جناحها مستغرقة في ألعاب وقراءات لم تعد سنيّة شديدة الحرص

على متابعتها . ولم تتابع بأية صيغة ما آل إليه أمر احمد وصادق ، ولدي زوجها حميد البزّاز اللذين بقيا في رعاية جدتهما في البصرة .

●

ما كان يَشغل بال سنيّة في أول أمرها ، هو كيفية الولوج إلى المجتمع المخملي الذي كانت تحلم به . كانت تعرف أن هذه الشريحة الاجتماعية هي مفتاح الدخول إلى مستقبلها ، ولم يكن يخطر على بالها ، هي المنحدرة من بيئة أدنى ، أن هذا الشريحة ليست مما يخيف أمثالها من الطَموحات ؛ كانت تظن أن الولوج إليه يتطلب ثقافة رفيعة وجهداً لا تملك من أدواته شيءً . ومع ذلك اقتحمت الأجواء بحضورها المنتظم للعروض الفنية ومعارض الفنانين ، ودخولها في مناقشات توحي باهتمامها بالشؤون الثقافية .

لم يخطيء حدسها .

تعرفتْ على مجموعة من سيدات هذه الشريحة ، وأقامت معهن علاقة قبولات ولقاءات كانت تُظهِر فيها أجمل ما عندها . عرفتْ ، بحس الأنثى ، أن مفاتيح هذه الشريحة نساؤها ؛ فراحت توطد علاقاتها بهن ، وتقيم جسورها لعلاقات أوسع .

●

قالت لكريم الذى جاء بصحبة صديقه الشاعر البصري ، إنها تتابع ما يكتب في (البلاد) ، وإنها معجبة بما تقرأ له .

شكرها كريم ، ولم يَزِدْ على ذلك .

من ناحيتها ، رأت أنْ سيكون لها مع هذا الفتى شأن من نوع ما . لم تُجهِدْ نفسها بتحديده ، ولكنها كانت سعيدة به .

■

لولو آرت

خصصت سنية جزءاً من الكاليري الذي أنشأته في شارع السعدون لعرض منتجاتها من أزياء لأعمالها الشخصية ، وأفردت قاعة منه لأعمال فنانين آخرين لعرض أعمالهم في مختلف الفنون ، طمعاً في استدراج الجمهور إلى نشاط الكاليري المتنوّع ، وقد أفلحت في إبقائه في حركة دائمة جعلته موضع اهتمام روّاد الفنون والنقّاد الذي كانت تنشره الصحف ، وينقله التلفزيون أحياناً .

لم تكلّف الفنانين أية عمولة على مبيعاتهم ، ولم تتقاضَ أي مبلغ لقاء طبع بطاقاتهم . شرطها الوحيد كان خضوع المعروضات لتقديرها هي ، وكانت لها بطانة من أصدقائها النقّاد والصحفيين تستعين بآرائهم كمستشارين ، وكان ذلك موضع احتفائهم ، فكاليري (لولو آرت) الذي صار معلماً من معالم الفن في بغداد يكفي طموحهم ويوفر لهم علاقات طيبة مع روّاد الكاليري من سيدات الوسط البغدادي اللائي يأتين للإطلاع على ما تنتجه سنية من أزياء ، ولم تبخل سنية في الترويج لأعمالهم . وكانت سمعة (لولو آرت) التي أخذت في الإتساع ، موضع ثقة رواد الكاليري .

وكانت ليالي سنية في جنينتها تجمع بين زبائن قاعتها وفنانيها بشكل حميمي لا افتعال فيه ، يعود بالتالي على الطرفين بالمنفعة ، وعليها بحصّة الأسد .

من أين جاءت سنية بهذه الستراتيجية ، وكيف أنشأت لنفسها ولأعمالها هذا النمو المتصاعد ؟ حيويتها ، طموحها ، كرمها وبذخها ، دماثتها ولطفها الطبيعي ؟ ربما كان لكل ذلك أو لبعض منه دور في نجاحها .

قبل انتهاء الدوام بساعة ، أطلّت عليها السيدة (أم سمير) وحيّتها وأثنت على نشاطها وتألق سمعتها وجمال تصاميمها ، وطلبت منها أن تصمم لها ثلاث بدلات لا مثيل لها ، إحداها لعروس سمير ، وثانيتها لها ، والثالثة لابنتها سميرة ، والتمستها أن تختار لها عملاً فنياً من المعروضات يقدَم هدية لسمير من أبيه .

دعت العائلة بأجمعها إلى العشاء في جنينتها ، وطارت هي إلى البيت لتهيأة المائدة .

كانت المفارقة طريفة لناصر ، فهو لم يتوقع أن تكون منحوتاته الثلاث التي أصرّ كريم على عرضها في (لولو آرت) ، ذات أهمية فنية من نوع ما ، ولذلك سلمها إلى كريم وترك له أمر التصرّف بها . كانت إحدى هذه المنحوتات هي ما اقترحته سنية على أم سمير .

■

مع النجاح المتواصل لمشاريع سنية ، وكثرة النساء اللائي يترددن على قاعتها ، والعلاقات التي كانت تقيمها معهنّ ، بقيت تحرص على إيجاد حدود بينها وبينهنّ ، فلم تُقم معهنّ علاقة من

ذلك النوع الحميم الذي يشدّ الصديقات ويجعلهن يفتحن دفاترهنّ ويتبادلن الأسرار الخاصة . كانت جزيرة لحالها ، مستقلةً بنفسها ومواقفها . ربما كان السبب شعورها الخفي بالتفوّق ، وربما كان حرصاً على الإيحاء بتوازن علاقاتها بين معارفها ، وربما كان نفوراً مما تحسبه فراغاً لا تريد لنفسها السقوط فيه ؛ ولذلك لم تسعَ إلى تأسيس هذا النوع من العلاقات معهنّ ، صداقاتها الأكثر دفئاً كانت مع الرجال ، وكان الشياطين يعرفون كيف يبادلونها ودّاً بود ، ودلالاً بدلال ، وغنجاً بغنج ، ويبدون بصدق ما يجول في أفكارهم ؛ وكانت هي تستقبل آراءهم وملاحظاتهم باهتمام ، فليس هناك منافسة تتوقاها ، ولا حسد أو غَيرة كمثل الذي يدور في مجالس النساء .

في عرس سمير حضرت ببدلة أنيقة بسيطة ، لتتيح لبدلات العروس وأم سمير وسميرة أن يكنّ هنّ مركز التألق ، وقد كنّ كذلك .

من أين جاءت لسنية بنت الحاج صاحب هذه الأفكار وهذه الستراتيجية وهذا التكتيك ؟!

■

راضي محمود

في فضلة بناء في سوق الهنود ، حيث تقع أجمل مخازن العشّار ، مركز المدينة ، أقيم مبنىً جديد ، وصار راضي محمود يدير فيه تجارة من نوع آخر . فهو أحد ورثة القطعة التي أقيم عليها البناء الجديد . دكان كبير كان مخزناً لحفظ بضائع تجار السوق تعود ملكيته لأبيه الذي غادر الدنيا يوم كان راضي جندياً في معسكر سعد في جلولاء .

حضر الفاتحة وعاد إلى المعسكر .

عُرض على ورثة والده ، وهم ثلاثة أولاد وبنتان متزوجتان ، شراء الدكان الكبير ليُهدم وتقام بدله سوق صغيرة تضم بضعة مخازن . وافق الورثة على البيع ولم يوافق راضي على بيع حصته . ولم تُفد كل الوسائل في إقناعه . بيعت الحصص الأخرى وبقيت فضلة لا تتعدى متراً ونصف المتر عرضاً ، وثلاثة أمتار عمقاً ، هي حصّة راضي . سمح راضي للمالك الجديد أن يستعملها في تكديس

مواد البناء إلى حين إنهاء خدمته العسكرية وعودته إلى البصرة .

وعناد راضي في عدم بيع حصته لم يأت من دراسة لظروفه الخاصة وحاجته إلى استثمارها ، فقد كان في الواقع أحوج إلى بيعها لتغطية مصاريفه الشخصية التي كان ينفق أكثرها في الشراب والنزهات في زوارق شط العرب مع زمرة من أصدقاء يحبهم . ولكنه رضخ لتأثير أحد زملائه في المعسكر ، أقنعه بأن موقع الفضلة موقع ممتاز لا ينبغي التفريط به في هذا الوقت الذي انخفضت فيه أسعار العقارات إلى درجة كبيرة بسبب نزوح الكثير من اليهود إلى اسرائيل بعد صدور قانون إسقاط الجنسية الذي سمح لليهود بالتخلي عن جنسيتهم العراقية ومغادرة البلد .

ورأى راضي من جانبه إمكانية التصرف بالفضلة بشكل أحسن ، وربما فكر أن بامكانه أن يستخدمها دكاناً صغيراً يستفيد من إيجاره . ولكن لم يخطر في باله أن يكون هو صاحب الدكان ، فهو شاب حيوي وطموح لا يريد أن ينفق عمره محصوراً في هذا القفص الضيّق .

عاد راضي بعد إنهاء خدمته العسكرية إلى البصرة وبقي أياماً قليلة فيها ، غادر بعدها إلى بغداد للعمل في معمل للمياه الغازية يملكه والد زميله الذي أقنعه بعدم بيع الفضلة .

في أيامه القليلة التي قضاها في البصرة ، جرت في إطار العائلة مناقشات حادّة وأفكار متضاربة بشأن حصته من الفضلة ، وكان لأزواج أخواته موقف استشفَّ منه رغبتهم في استثمارها بصيغة ما . تلك هي حالة العقارات دائماً ، القوي يلتهم الضعيف ، وأن كان صاحب حق ؛ وكثيراً ما بُنيَ الأبتزاز على استغلال دماثة الرجل واستحيائه .

أجّر الفضلة إلى شخص أحالها فوراً إلى محل لبيع النظارات .

■

في المعسكر

ليل معسكر السعدية في جلولاء ليل جميل ، وخصوصاً عندما ينتصف الشهر القمري ويبدو القمر مكتملاً في السماء الصافية ، وتتسلل روائح بساتين ديالى بليمونها وورودها إلى حنايا المعسكر حيث يخلد جنوده وضبّاطه إلى الراحة ، ويختلسون الوقت لتناول العرق والمزّة التقليدية المؤلفة من (الجاجيك - الخيار باللبن) والباقلاء المسلوقة المعطّرة بالنعناع البري التي يعدّونها لهذه السهرة التي تحتضن حوارهم المكتوم وأحلامهم الكبيرة ، ومغامراتهم الحميمة .

مغامرات راضي محمود لم تكن أكثر من أمسيات عابرة مبتورة مع فتيات عابرات ، يتحدّث عنها كما لو كانت محطات مهمّة في حياته ؛ كان يحلم أن يلتقيَ بفتاة من بينهن ينتزعها من واقعها الكئيب ويقيم معها علاقة رفيعة ، ويعيشا بمودة وسعادة كما في قصص ألف ليلة وليلة ؛ وهو ينتظر ذلك ما دام فارغ اليد من علاقات اخرى . في حين كان زميله جميل قليل الكلام عن وضعه

الشخصي ، يتحدث بلذة عن طبيعة البلد وجمالياته وتاريخه وسحر بيئته والآفاق المفتوحة لتطوره ، بأسلوب هادىء يجهد ألا يكون مثيراً . وكما هو متوقع ، يأخذ الحديث عن المعسكر والضبّاط والمراتب وتصرفاتهم وأخلاقهم طرفاً واسعاً من الحديث .

لم يفهم راضي ذلك الوضع الغريب لضباط الاحتياط الذين جيء بهم بعد تخرجهم من الكليات إلى المعسكر ، ولم يعرف لماذا ينفقون شهراً كاملاً في بناء حاجز حول المعسكر ، وعندما يتمّ البناء يأمرهم الضابط بهدم ذلك الحاجز وإعادة بنائه بمواصفات جديدة . على أنه كان ، شأنه شأن كل من في المعسكر ، يحمل لهؤلاء الضباط الشباب الكثير من الاحترام لمراكزهم الثقافية التي كانت موضع علم الجميع .

●

في نادي الضباط في المعسكر انفرد الآمر الذي يحمل رتبة زعيم باثنين من مساعديه الضباط وراحوا يلعبون الدومنة . قال الآمر موجهاً كلامه لأحدهما :

- بكرة خلي الشباب يهدمون هذا الحاجز ويبنون غيره في الطرف الآخر من المعسكر .

- سيدي ؛ ما راح تنتهي هذي الحواجز ؟ كل يوم ابنِ واهدم ؛

إلى متى ؟

- إلى يوم الدين! ماذا نفعل ، بماذا نشغلهم ؟ هؤلاء شباب لا خبرة لهم بالعسكرية ، ولا مطلوبون لها ، ولا ضرورة لوجودهم أصلاً .

ثم قرّب رأسه من رأس زميله ، وهمس له :

- هذه دورة خاصة لا أساس ولا ضرورة لقيامها ، أقيمت لاشغالهم عن الأمور المعروفة ، وسُمّيت (دورة ضباط الاحتياط) ، وهي لا دورة ولا ضباط ولا احتياط ؛ افتهمتني ؟

●

انتهت الدورة ، وسُرّح ضباط الاحتياط ، وصار واحدهم يبحث عن عمل حرّ بعد أن أغلقَتْ في وجوههم مجالات العمل الرسمي .

الدكتور فيصل صار يبيع اللبن في شارع الرشيد ، واتجه آخرون إلى مجالات أخرى . وصار من الطريفِ الممتع الحديثُ عن جودة النخالة في خان الحاج سويدان بفضل وجود الدكتور عدنان مشرفاً على إنتاجها وتعبئتها ، وصارت عَرَبانة الشاعر صلاح لبيع الشاي في زاوية اسطوانات چقماقچي في نهاية شارع الرشيد ، ملتقىً للأدباء والفنانين ، يتحلّقون حولها ويناقشون ما يدور في المحيط الأدبي ، ويعلقون تعليقات فكهة على شطارة صلاح وخدمته

للزبائن ، ويستعيدون الأرجوزة التي كتبها عن مهنته الجديدة . في حين كان مقهى البرازيلية ، ومثله مقهى حسن عجمي يكتظان بأعداد آخرى منهم بانتظار ما تسفر عنه قرارات وزارة المعارف وغيرها من الوزارات ، عن مصيرهم . ولم تكن تخلو هذه اللقاءات من لطائف وطرائف تقال شعراً لا يُعنى بتسجيله غير شاعر شاب دائم الحضور إلى هذه المنتديات ، هو زهير احمد القيسي الذي كان أصغرهم سناً .

●

كان راضي يريد التعبير عن نضج رؤيته الثقافية ومواقفه الوطنية ، ولذلك لم يُخْفِ عن جميل هواجسه وتطلعاته .

قال له ذات يوم :

- عزيزي جميل ، صرت تعرفني من خلال لقاءاتنا المتواصلة ، وتعرف أنني من عائلة بسيطة في ثقافتها ، فلم يكن والدي غير بائع سجّاد ميسور الحال ، أسّسَ ثقافته على علاقاته العامة وحضور المجالس والحوار مع الناس ، وشأنه شأن الكثيرين من أبناء جيله البصريين الذين لم تتح لهم ظروف التعلم في المدارس ، وقد نشأت أنا متأثراً به ، أحفظ الأشعار والأمثال التي

كان يتداولها ويلقيها على أفراد العائلة باعتبارها من أسس التربية ، ولم يكن منا ، أنا وأخواتي وأمي ، غير أن نصغي لما يقول ، دون استيعاب لمدلولات ما يقوله ، وكان مسروراً من أسئلتي في استيضاح بعض ما يصعب عليّ فهمه من أحاديثه ونصائحه . ولكن دراستي في المدرسة المسائية عرّفتني على أساتذة وزملاء أسعفوني باضافة معلومات ومعارف جديدة جعلت الكثير مما كان يرويه الوالد ويحلله ، تنسحب وتحل محلها معارف أخرى أكثر ملاءمة لزمني ، وأنا لا أدعي العلم بكل الأمور ، ولكنني ، على الأقل أستطيع فهمك ، فلماذا لا تكون واضحاً معي ؟ ها أنت تلمّح لي عن أمور وكأنك تعلّم تلميذاً لا يعرف ما يجري ؛ هذا يحزنني ، إنني أعرف ما ترمي إليه ، ومن المفيد أن ننسّق تطلعاتنا كصديقين يدركان مسؤولياتهما ؛ كن صريحاً ، فلستُ ساذجاً كما تظن .

طفح السرور على وجه جميل فمدّ يده عبر الطاولة وشدّ على يد راضي بقوة ، ولم يقل شيئاً .

بعد شهر ، سُرّح راضي محمود من الخدمة العسكرية مُحمّلاً بأحلام عريضة ، وبرغبة بمواصلة ما دار بينه وبين جميل الذي انطلق يحاوره بصراحة ووضوح مثلما طلب ؛ وصارت لقاءاتهما تأخذ بعداً آخر . وعلى أساس ما تطوّر من علاقتهما عرض عليه جميل أن يعمل بعد تسريحه في معمل المياه الغازية الذي يملكه

أبوه في بغداد .

■

الثورة

قامت قيامة العراق يوم ١٤ تموز من عام ١٩٥٨ .

بتول ما زالت في پاريس .

سنيّة في بغداد .

راضي محمود وكريم وجميل في بغداد .

ناصر معتكف في صومعته في البصرة .

●

أسَرَّ جميل الذي صار مراسلاً في وزارة الدفاع إلى صديقه راضي الذي جاء يزوره مهنّئاً ، أن من الضروري أن يأخذ دوره في الوضع الجديد ، ويعود إلى البصرة ، ويعمل في المجال الذي يستطيعه ، فالثورة بحاجة إلى المخلصين لمواصلة مسيرتها . شعور ساد كل أوساط الناس المتطلعين إلى مستقبل أفضل للوطن .

عاد راضي إلى البصرة ، وعاود الاتصال بأصدقائه ومعارفه ، وراح يشارك بحماس في المناقشات التي كانت تدور بينهم . كانت الحيوية طافحة والآمال ترفرف مثل العصافير في رؤوسهم ، والمشاريع تتوالى واندفاع الشباب لا حدود له ، وراضي يتنقّل من جماعة إلى جماعة ، مشجّعاً على تنظيم صفوفهم ، وداعياً إلى العمل بجد لدعم مكاسب الثورة ؛ لم يكن له أي طموح شخصي ، كان يريد أن يكون في الموضع النافع لهذه التطلعات . ساهم في تأسيس نقابة عمال البناء ، ونقابة عمال الموانيء ، ونقابة عمال السكك ، وراح يمارس نشاطه بحيوية ، ويسعى إلى تأسيس اتحاد للنقابات العمالية في البصرة ، ولم يكن من الغريب أن ينجح في ذلك ، فقد أثبت جدارة في بناء علاقات متينة بين النقابات المهنية كلها ، بما فيها الاتحادات الثقافية ، الأمر الذي جعله موضع احترام الجميع وأملهم فيه .

وحدث أن وصل في هذه الأيام ، صديقه كريم إلى البصرة . وكان لقاؤهما حاراً ، وكان لكل منهما ما ينعش الثاني ، ويجعل لاستعادة الذكريات نكهةً ذات أبعاد مثيرة .

بعد تناول الشاي واستذكار الأيام الخوالي ، واستقراء ما يجري في البلد ، والآفاق الجديدة ، قال راضي :

- أتذكر يوم كنا مضربين تضامناً مع مصر ؟

قال كريم :

- أذكر أننا كنا في نادي الاتحاد الرياضي ، نتناول الكباب ونستخفّ بقول نوري السعيد : «دار السيد مأمونة» .

- ألا تذكر أنني قاطعتُ جلستنا وغادرتكم لبعض الوقت ؟

- أذكر .

- حسناً ، لقد ذهبت إلى مدرسة الرجاء العالي (مدرسة الأمريكان) ، ودلفتُ إلى المرافق الصحية ، وخلعت مصباح المرحاض ، وأولجت بينه وبين القابس فلساً ، فانقطع التيار الكهربائي في كل المدرسة .

- ونجح الاضراب .

- هكذا .

■

في التوقيف

دوهِمَ مقر اتحاد النقابات في البصرة ، والتُقِطَ عدد ممن كانوا حاضرين فيه وأودعوا التوقيف . كان من بينهم راضي محمود .

في الموقف التقوا بمجموعة ممن قُبِضَ عليهم من شخصيات أهل البصرة المتحمسين للعمل الوطني . كانت الحيرة بادية على وجوه الجميع . لمن الثورة إذن إذا كان المدافعون عنها قيد الاعتقال ؟ ولماذا يُغَضُّ النظر عن المتربصين بها ويُترَكون أحراراً بلا محاسبة ؟

ورغم الاحباط الذي كان بادياً على الجميع ، كان الأمل في استقامة الأمور حاضراً في نفوس أكثر المجموعة .

- هذا خطؤنا ؛ نحن الذين ضيّعنا فرصة الاستيلاء على السلطة ؛ ينبغي محاسبة من كان سبباً في تطاول هذه الفئات الحاقدة على الثورة .

- يا عزيزي ، هناك ظروف وملابسات نحن لا نعرفها ، وللقيادة ستراتيجيتها وتكتيكها ، وكل الأمور محسوبة ، وهذه

الأمور تحدث في كل مكان .

- يا أخي ، نحن لا نشك بحصافة القيادة ، ولكن هذه الغارات على مقرات المنظمات الديمقراطية ، واعتقال المدافعين عن الثورة لا يستقيم مع تطلعات الثورة ؛ ينبغي لكلمة الحق أن تُقال ، هناك صراعات داخل القيادة ، هذا كل ما في الأمر .

- ليس هناك صراعات ، هناك اختلاف في وجهات النظر وتقييم واقع الحال ، وطريقة التعامل مع البرجوازية الوطنية .

- هذا اختزال لما يجري ، واتّكاءٌ على فرضية (البرجوازية الوطنية) التي نرى منها ما نرى . لماذا لا نعترف بوجود تيارين ، لماذا لا نقول إن هناك تياراً يدور في فلك الاتحاد السوفييتي ، وآخر في فلك الصين ، وأن الرفاق موزعون بين هذين التيارين ، ومختلفون في تحديد الموقع الحقيقي للنظام ودورنا في هذه المرحلة . تقول إن التعامل مع البرجوازية الوطنية هو صلب الموضوع ؛ دعني أسألك :

هذه البرجوازية الوطنية التي نُوقّتُ حركاتنا على ساعتها ، دفعت بقواتها إلى محاربة الأكراد ، بأسلحة من ؟

- نحن ضد هذه الحرب .

- ولكن بأسلحة من ؟

- يا عزيزي ، الأسلحة السوڤييتية لم تأتِ لمحاربة الأكراد ، وإنما للدفاع عن الوطن من أعدائه .

- ولكنها استُخدمت لضرب الأكراد . أليس للقيادة موقف في هذا ؟ أنا كشيوعي كردي لا أستطيع أن أقنع الأكراد بما تقول ، ولا أستطيع أن أقنع نفسي ؛ ولكنني كشيوعي لا أستطيع أيضاً أن أخذل الحزب .

- قامت القيادة بجمع ملايين التوقيعات ضد هذه الحرب ، ماذا تقترح أن تفعل ؟

- ما قيمة هذه التواقيع التي لا يعرف صحتها أحد ، أتظن أننا بالتواقيع نغيّر الأوضاع ؟ ألا يبدو الأمر مضحكاً ، لقد ذهب وفد من الرفاق حاملين تلك التواقيع إلى الزعيم ، وإذ لم يجدوه أودعوها لدى السيد عبد الجليل پرتو ، وبعد أسبوعين ذهبت مجموعة أخرى بآلاف التواقيع ، فالتقطتهم عناصر المخابرات وأودعتهم التوقيف ستة أشهر ، ثم قدمتهم إلى المحكمة التي حكمت عليهم بالسجن ثلاثة أشهر ، مما جعل أبو گاطع ، وهو رئيس هذه المجموعة ، يقول : «آني أطلبهم بعد ثلاثة شهور» .

- هل تقترح أن نحمل السلاح ؟
- لا أقترح ذلك ، فالسلاح غير موجود أصلاً .
- ماذا تعني ؟

- أعني أن الأقاويل بوجود السلاح في الأرياف لا صحة له .
- وإذن ؟
- لا أدري ؛ كل ما أتوقّعه هو أننا على مشارف كارثة . ولكن دع عنك الآن موضوع الأكراد ، وقل لي ما الذي أمام الحزب أن يفعل أمام ما يجري ؟ وماذا لو حدثت مواجهة بينه وبين قوى الردّة ؟
- الحزب ليس غائباً عن توقّع المستقبل ، وهناك أسلحة وفيرة موزعة في الأرياف ، والرفاق مستعدون للمواجهة ساعة تحين .
- ثق يا رفيقي أن ليس هناك لا أسلحة وفيرة ولا صغيرة ، إذ ليس في منهج الحزب المواجهة بالسلاح لتسلم السلطة .
- هذا إحباط يا رفيقي ، وعلينا أن نعزز معنوياتنا .

كان حتى المكابرون والملتزمون سياسياً يحسّون برياح الكارثة تقترب . كان بعضهم شديد الثقة بأن القيادة ستأخذ دورها حين يحين الوقت ؛ وبعضهم يظن أن الوقت يضيق ، وأن على العناصر الوطنية أن تتصرف وفق ما يجري ، لا وفق الأمل والنظريات والأمثلة التاريخية والمقارنات مع حالات أخرى في محيط آخر .

■

حلت الكارثة ، وراحت الرقاب تتهاوى تحت سيف الانقلابيين ؛ وكان من حظ هؤلاء المعتقلين أنهم اعتقلوا قبل الانقلاب ، لذلك جرى نقلهم من معتقلهم إلى معتقلات أخرى ، الأمر الذي أتاح لهم الابتعاد عن مسرح المذبحة ؛ ولكن إلى متى ؟!

في التسعة الأشهر التالية التي أعقبت الانقلاب وأزالته ، أطلق سراح العديد من ضحايا الانقلابيين . وكان راضي محمود من بينهم .

■

مصائر الأصدقاء

ها هو يُنصِت ، شأن كل ليلة إلى الأخبار . يتوارى الأصدقاء والرفاق واحداً إثر الآخر ، ويتلذّذ المذيع باذاعة الأسماء التي أسست للوطن ملامحه التاريخية النظيفة . وكريم في مكمنه يتذكر ويتذكر ؛ ولا يكاد يصدّق أن عنق التاريخ يمكن أن يُلوى بهذا الأسلوب الدموي السهل ، بعد كل ذلك النضال المرير .

أين سنية الآن ، وأين بتول ، وأين راضي وفايق بطي ، وبقية الأصدقاء . غيم أسود مطبق على أجواء العراق ، ضيّع تلك الملامح البهيّة للوطن الجميل .

كم سيدوم هذا الكابوس المطبق على الوطن ، وكم سيدوم هذا الغياب عن أجوائه ومعالمه ؟

كل ليلة تأتيه الأطياف حافرةً في خلايا وعيه ما ليس للأحلام أن تذهب به أو تتصوره .

صارت الدنيا تُختصر لديه بأسماء تستدرج أسماءاً ، ورؤىً

تلحق بأخرى ، وهماً بآخر ، وأملاً غامضاً لا يقوى على الوضوح .

أهكذا إذن ، وبلمحة زمنية قصيرة ، تضيع كل تلك الرؤى والأحلام والأفراح والأصدقاء ، وتتعذّر الرؤية وتغيم الدنيا كأنْ لا تاريخ ولا مواقف ، ولا محبة ، ولا شيءَ مما انصرف العمر إلى تأسيسه ؟

●

ها هو ذا يتعلم لُعبة الطاولي بأنواعها ، ولعبة الدومنة بأشكالها ، بل تذهب به الظروف إلى تعلم البوكر وألعاب الورق بكل تفاصيلها ، وهو الذي كان ينأى بنفسه عن كل هذه الألعاب الدنيوية العديمة الجدوى . ويجدّ في أن يكون له حضور في لعبة الشطرنج والبليارد وكرة الطاولة ، وما يمكن من الألعاب السويدية البسيطة . لم يكن أمامه غير هذا وهو في ضيافة هذا الشيخ المتعب الذي لا يغادر البيت إلا لقضاء بعض المستلزمات البسيطة ، والذي وجد في كريم أنيساً يمارس معه تلك الألعاب ، ويتجنّب بأدب الدخول في حديث عما يجري ، لئلا يستثير شجونه ، كرَمٌ لم يكن يتوقّعه من هذا الشيخ البصري المتواضع .

منطق آخر ، وظروف أخرى ، في هذا المخبأ الذي يركن إليه بعيداً عن أعين الرقباء وتطفّل البسطاء .

يستعيد في نفسه ملامح التاريخ ، يريد أن يصدّق أن ذلك ما هو إلا حالة عارضة تدخل ضمن دورة التاريخ ومصائر الأمم ، ولكن أنّى له أن يستجيب لهذا المنطق في هذا الوضع غير المنطقي ؟!

بدت له كل التخريجات السياسية شاحبة تفتقر إلى الأصالة ، هناك مواطن لم تستطع السياسة أن تكتشفها ، وظروف حساسة لم تؤخذ في الحساب ، ومفارقات وملابسات تستعصي على التبسيط ، ونماذج متسلطة تتحكم في المصائر دونما حقّ أو تفويض . وليس لديه القدرة على تغيير ما هو قائم ، فهو رافض ، ولكن الرفض لا يأخذ مداره الفاعل إلا ضمن مواضعات يعرفها ، وهو لا يملك ، في حالته هذه ، أن يكون فاعلاً ، ولا يملك كذلك حقّ التنصّل من واجبه الأخلاقي في أن يكون في مركز الدائرة . دوّامة من الأفكار والتصوّرات تأخذه وتلفّ به أركان الدنيا ، ثم تعود به إلى هذا البيت المتواضع والرفيق الشيخ الذي يشاركه هذا البيت ، ويعلمه أساليب الطاولي والدومنة المختلفة ، ويسحبه من دائرة التوتّر والوعي الحارق الذي يأكل أعصابه ، ويوقفه في دائرة الواقع التي ترسم الخطوط الأساسية للتاريخ .

ولكن ما هو هذا التاريخ الذي يجهد أن يكون خيطاً في نسيجه المعقّد ؟ تذكّر مقولة روسية ؛ سوفييتية بالأحرى ؛ تقول « إن الأبطال لا يصنعون التاريخ ، إنما التاريخ هو الذي يصنع أبطالاً » ،

لقد أكلت قلبه هذه المقولة منذ سمعها أول مرة ، وابتلع اعتراضه عليها ، رغم كون هذا التاريخ يعزّز اعتراضه بمئات الوقائع .

فمن يستطيع أن ينكر بأن الحمقى هم ممن يصنعون التاريخ ؟ وهم الذين يقدمون نماذجه في دورة الحياة ، هل نحن بحاجة إلى النماذج ؟ أيامنا ومواطننا حافلة بذلك ، هذا چومبي في الكونغو ، وسيكوتوريه في غينيا ، و . . . لا تدعني أذهب بنفسي إلى المهلكة .

أي تاريخ يعنيه الرفاق في موسكو ؟

■

ناصر

كان مولعاً منذ صغره بمراقبة خلق الأشياء وتكوينها ؛ مندفعاً بشوق إلى معرفة أوائل الأمور . كان يقف متأملاً عمال البناء وهم يكوّرون كرة الطين ويفرشونها فوق صف الطابوق ويضعون فوقها طابوقة جديدة ، ثمّ يزيلون أطراف الطين بالمالج . وربما توقّف بعد انتهاء البناء متذكراً كيف كان العمال يرصفون صفوف الطابوق ، متلذذاً بكونه شهد ذلك بنفسه . ولم يكن يتحرّج من الوقوف أمام النجارين وهم ينشرون ألواح الخشب ويصقلونها ، أو يتطلع إلى الخباز وهو يترنّح قبل أن يدحو الرقاقة في التنور ، أو إلى صانع السيگاير وهو يملأ الأنابيب الورقية بالتبغ ويجعل منها سيگاير . كان يود لو يعمل ذلك بنفسه . وهذا ما جعله ولوعاً بالأعمال اليدوية ، وجعل ليديه حساسية ورهافة في التعامل مع مخلوقاته ، وصقلَ قوة ملاحظاته لدقائق الموجودات وتفاصيلها ، وبالتالي ، محبّتها ؛ الأمر الذي يبدو طبيعياً في اتجاهه إلى النحت ؛ وهو لم يدرسه دراسة نظامية ، إنما كان مأخوذاً به . يأتي بالطين الحر ويروح يعجنه ويصفّيه من الأملاح ، ويشرع بتكوين أشكال هي

بين تكوينات النحت والخزف . لم يكن يهمه أن تنتسب أعماله إلى صنف دون آخر ، فهو ، في نهاية الإمر ، لا يفكر بعرضها على الجمهور ، ولا طاقة لديه على فخرها وتقديمها كمنحوتات جدية . ظلت طيناً يابساً لا يجرؤ حتى على إهدائه لمن يحب .

كان في زمالته المدرسية لكريم وراضي محمود ، أثر عليهما أكثر من أثرهما عليه ، فهو الذي كان ، كما يسميه زميلاه ، (المكتبة المتنقلة) التي لا تنقل إليهم ما يدور في الأوساط الثقافية فحسب ، إنما في الغور في ثنايا الأحداث ومحاولة تحليلها وربط خيوطها واستنتاج بعض التقديرات والمصائر المبنية عليها . كان يبدو أكبر من عمره ، وكان زملاؤه يتوسمون فيه قائداً بمعنىً ما . ومع أنه كان يشارك معهما بحماس في الدعاية الانتخابية لمرشحي الجبهة الوطنية عام ١٩٥٤ ، إلا أنه بقي مستقل الرأي ، بعيداً عن المعارك السياسية التي كان ينسبها إلى دورة التاريخ الذي كان شديد العناية به ، لذلك لم يكن متشنّج المواقف ، بل كان شديد المرونة في التعامل مع الظواهر السياسية ، بعيداً عن الحماسة المجانية التي كانت شائعة في أوساط كثير من المثقفين . وإذ كان يُحسّ في نفسه أنه ليس بطلاً ولا قائداً ، فقد أتاح له ذلك قدراً كبيراً من الحرية في التعامل مع الأمور ؛ وكان ذلك يمنحه راحةً نفسية ويجعل لآرائه فاعلية أقوى في أوساط زملائه .

لكنه بينه وبين نفسه ، كان موزّع المشاعر على طرفين ؛ يتمنّى لو كان مواطناً في غير هذا البلد المقهور المحدود الأبعاد ، والمستريح على تاريخ طويل لم يستفد منه ولم يساعد على امتداده ؛ بل ربما ذهب به التصوّر إلى إمكانية التخلّي عنه ، والرحيل إلى آفاق أخرى تحتضن مشاريعه الحالمة ، ولكنه كان يطرد هذه التصورات بسرعة كما يطرد الذباب .

وكان ، من جانب آخر ، محرَجاً من هذا الانتماء للوطن ، لأنه لم يفِهِ حقّه ؛ كان يستصغر كفاءاته الذاتية ، ولا يراها ذات قيمة تؤهله للحضور في الزمن ومسار الوطن .

كانت المعادلة وعرة ومعذِّبة ، تأخذ من أفكاره مساحة واسعة دون إمكانية التخلص منها . فهو رغم كل ما يحلم به ويفعله لا يغامر ، حتى في الأحلام ، بتجاوز محيط البصرة ؛ إذ هو ، في واقع الحال ، لم يغادرها غير مرة واحدة ، إلى بغداد برفقة كريم الذي عرّفه على بعض أصدقائه من الأدباء والصحفيين واصطحبه إلى صالون سنية ، وكان قد تولّى بنفسه انتقاء ثلاثة أعمال من منحوتاته يأخذها إلى بغداد ويحتفظ بها لديه . وحين افتتح گاليري (لولو آرت) اقترح على سنية أن تعرضها في الگاليري .

■



قضى جميل أكثر من شهر مختفياً في بيت أقرباء له في العزيزية بانتظار فرصة تواتيه للنزوح إلى البصرة ، وكان يعزّ عليه أن يكلّف هذه العائلة الفقيرة التي استضافته فوق طاقتها ، كان ينظر إلى صحن (القيمر) الذي يأتونه به كل صباح نظرة مترددة مشحونة بمشاعر ملتبسة ؛ لماذا يجهدون أنفسهم بهذه الحفاوة التي لا يطيقونها ؟ كيف يتأتى له أن يخبرهم بأنه يمكن أن يكتفيَ بما هو أقل من هذا ، أن يكون مثلهم ، دون أن يجرح مشاعرهم ويخترق مواضعات الضيافة ؟

أوشك أن يبكي ، موزعاً بين حقيقته الداخلية وبين ما يذهب إليه هؤلاء الكرام البسطاء الذين يتمسكون بمنتهى الدقة بواجبات الضيافة التي درجوا عليها . ولم يكن أمامه إلا أن يأخذ من صحنه إلا لُقيمات ويترك الباقي للعائلة التي لم يكن بمقدورها أن توفّر لنفسها مثل هذا السخاء المبالغ فيه . لم يكن طعم القيمر هذا كما كان يعرفه ، إنه ليس له ، إنما لأفكار كانت لمضّيفه ، وهو يتناوله

من خارج طبيعة الأمور ، من خارج نفسه ، ومن خارج حقيقة المضيّف ، وكان ذلك محرجاً ومعذّباً ، ولكنه مفروض . كان يريد أن يستعجل الفرار من هذه المعادلة الموجعة ، وكان صغيراً أمام هذا السخاء ، وصغيراً أمام نفسه ، وصغيراً أمام ما كان يزهو به مضيّفه العامل المتواضع . وكان أكثر ما يحزّ في نفسه ، عدم إمكانية الحوار بينه وبين مضيّفه أو أفراد عائلته الذين كانوا يظنون أنهم أمام كيان ملائكي لا يحق لهم الصعود إلى مستواه والحوار معه . ولم يجرؤ أحد منهم على الاقتراب من هذا الكيان الذي يرتبط بأحلامهم كهالة لا يجب أن تُمسّ أو أن تُضايَق . وقد ذهبت كل محاولاته في كسر هذا الشعور ، وتعديل الصورة ، سدىً .

البصرة القريبة من روحه ما زالت نائية ، وهو لا يعرف من أهلها غير راضي ، صديقه في المعسكر ، وكان قد زاره فيها مرتين ، يوم كان راضي رئيساً لاتحاد النقابات ؛ ولم يكن يطمع برؤيته في البصرة هذه الأيام ، فهو لا شك مختفٍ في مكان ما ، أو معتقل أو . . . ، لم يقوَ على نطق الكلمة الفاجعة .

كما لم يكن يعرف من أهل البصرة غير بائع تبغ صديق لراضي ، سبق أن زاره مع راضي ، وتناول الشاي عنده . ودار بين الثلاثة حديث طويل عن الوضع السياسي وما يحيق بالثورة من مشكلات ، ومهمة تنوير الناس بما يجري وما يُتوقَع . ولم يكن

لصادق التتنچي ذلك الحضور السياسي سوى التعاطف الحميم مع الشباب ؛ ولكنه كان واسع الاطلاع ، وله مجموعة من المحفوظات تلقّاها من المجالس التي كانت شائعة في البصرة ، ومن مجالسة الخطباء في هذه المجالس ومما يدور في المقاهي وغير ذلك . وهو يروي هذه المعلومات ويستشهد بها في أحاديثه وكأنها من اطلاعه المباشر على مصادرها ، وربما ذهب به الظن إلى أنها من استنتاجاته هو ؛ ولذلك كان حديثه دافئاً واثقاً يسوقه بنبرة هادئة وبصوت خفيض واضح .

كان جميل في وضعه هذا أشبه بجرذ في رواق الاختبار ، حيث لا منفذ سوى فتحة واحدة عليه أن يجهد في العثور عليها ويفلت من القفص . وفي مثل ما هو عليه ، لا مناص من اللقاء بهذا الرجل وتبادل الرأي معه ؛ ولكن أنّى له أن يعرف ما قد تتركه زيارته إياه في هذا الوضع المتوتر من آثار ؛ هذا إذا تيسّر له الوصول إلى البصرة .

مرّ شهران على وجوده مع هذه العائلة المتواضعة ، منتظراً أن يُفلح صاحب الدار في تأمين هروبه إلى البصرة بأسلوب آمن ، فهو مسؤول عن حمايته .

تم الإتفاق بينهما على أن يغادر صباحاً لإبعاد الشكوك ، حيث سيراقب تحركه بعض الرفاق من الفلاحين .

ها هو الآن في البصرة ! على مقربة من صادق التتنچي ، ملاذه الأخير .

مرّ على دكانه كمن يمرّ صدفة ، سلم عليه فرحّب به ودعاه للجلوس وتناول الشاي ، ولفّ له سيگارة من التبغ الجيد ، وراحا يتحدثان .

دار الحديث عن راضي محمود بالطبع . قال الرجل بلوعةٍ مختصراً تاريخاً من الألم الجارح المكبوت :

« أخذوه إلى بغداد ، منذ أسابيع ، ولا أحد يعرف مصيره » .

وإذ لاحظ جميل لوعة الرجل وأسفه على راضي ، وانتقاده لما يجري ، تشجّع وأخبره بحاله ، وسأله إن كان من الممكن أن يجد له غرفة للايجار في موقع بعيد عن الأنظار .

قال الرجل ، وهو يتنهّد : « تهون »!

ثم أردف بنبرة العارف الصابر :

« الغَمَراتُ ثمّ يَنجلينَ » .

●

مكث جميل تسعة أشهر في مخبئه الذي وفّره له صادق ، لا يخرج منه إلا نادراً حيث يتجول في الأماكن القريبة ، ويتسوّق من

أسواق أبعد من سكنه ، تجنّباً لقيام علاقات بينه وبين جيرانه . والحق أن نوعاً من التواطؤ الصامت كان يشيع بين الناس على عدم الخوض في خصوصيات الغرباء على مناطقهم ، لئلاً يسبب لهم حرجاً ويعرّضهم للمشاكل ، ويزعزع براءة الضيافة التي درجوا عليها .

بعد هذه المدة التي أزالت شبح الرعب عن النفوس ، انتقل جميل إلى العشّار ، وصار يسهر في المقاهي مع صادق التتنچي ، وتعرّف على أصدقاء آخرين يلعب معهم النرد والدومنة ، ويتناولون ما يقدمه المقهى من مشويات أثناء حديثهم الذي يبدأ وينتهي بالفواجع التي مرّ بها البلد .

كان من بين من تعرّف عليهم في هذا المقهى ، كريم الذي خرج هو الآخر إلى فضاء البصرة بعد عناء طويل في التنقّل والاختفاء في أماكن عديدة مع ناس يعرفهم وناس لا يعرفهم . وسرعان ما قامت بينهما علاقة ذات بُعد ألطف وأكثر خصوبة ، وصارت أمسياتهما تمتد لوقت طويل مشحون بالكثير من الحوار الناضج . ولم يكن من الغريب أن يكشف كل منهما للآخر بعض أسراره .

●

ذات يوم همس جميل لكريم أن اثنين من ضباط عبد الكريم

قاسم كانا مختفيين طيلة هذه المدة ، وقد التقى بهما بواسطة صديق له ، وطلبا منه إن كان يعرف من يساعدهما على الحصول على هوية مزورة يستطيعان استخدامها في تنقلهما . قال جميل : «سأسأل عن ذلك» .

وإذ كان كريم أخبر جميلاً كيف زوّر لنفسه بطاقة هوية ، سأله جميل إن كان بامكانه مساعدتهما بعمل بطاقة لهما ، والتعرف عليهما شخصياً .

بدون تردد أبدى كريم استعداده لذلك ، وطلب منه أن يأتي بصورة لكل منهما ، وأن يختارا الأسم الذي يريدان أن ينتحلاه .

كان الاثنان يحسّان بأنهما يستعيدان عملهما الوطني في هذه الظروف الحالكة ، ولو بهذه الصيغة البسيطة .

دارت في رأس كريم مشاريع عديدة عن كيفية إعداد ختم لتلك البطاقات يكون قريباً من الكمال ؛ وتمنّى لو كان محتفظاً بالختم المتقن الذي صنعه لنفسه . ومع أنه لم يصل بعد إلى نتيجة في هذا الشأن ، إلا أنه أحسَ بأنه يقوم بعمل كبير يمكن أن ينقذ إنسانين من المشاكل القاتلة ، بل ربما ساعدهما على مواصلة دورهما الوطني .

شعر بشيء من الرضا ساعده على ابتكار الصيغة المطلوبة . وفي

اليوم التالي جاء بهما جميل وعرّف بعضهم على بعض ، وأعطاهما اسماً لكريم غير اسمه هذا ، على سبيل الاحتراز ، وراحوا يحتسون الشاي ويتكلمون بصوت خفيض . سلماه صورتيهما ، وغادرا بعد وقت قصير ، وبقي جميل وكريم يتذوقان طعم ما سيقدمانه من خدمة إنقاذ لرجلين من هذا المستوى .

أعدّ كريم البطاقتين وسلمهما لجميل ، ولم يلتق الرجلين بعد ذلك .

■

بتول في باريس

خرجت من المعهد العالي للفنون التزيينية في پاريس ، مبهورةً تتلفّت يمنة ويسرة ، تريد أن تستوعب كل ما يحيط بها دفعة واحدة ، مثلما يستنشق الخارج من جو رطب حار هواءاً نقياً ملء رئتيه .

إذن هذه هي پاريس ، وهذا مبنى الپانتيون ، مقبرة العظماء ، القريب من معهدها ، وتلك حديقة اللوكسمبورگ وشارع سان ميشيل والسوربون والحي اللاتيني . قالت في نفسها : أيمكن أن تجتمع كل الأماني في مساحة واحدة ؟

انحدرت من مبنى الپانتيون نازلة باتجاه شارع سان ميشيل ، وقبل أن تتجه يميناً رمقت لافتة مقهى اللوكسمبورگ التي ملأت سمعها منذ أن كانت صغيرة (قفزتْ إلى فمها فجأةً : هنا كان يجلس لينين) . عبرت الشارع وأجالت نظرها في داخل المقهى وفي صفوف الطاولات المرصوفة بأناقة وترف على الرصيف ، أحسّت

بنفسها تبتسم راضية ، ولم تلبث حتى انفرجت شفتاها بابتسامة منبهرة مصحوبة بشهقة خفيفة عندما لمحت في الركن الأيسر لافتة حمراء لمقهى (روستان) ؛ روستان! إدمون روستان ؟! وانزلقت ذاكرتها بنعومة إلى سيرانو وروكسان ، وتراءى في خيالها أنف سيرانو دو برجيراك وسيفه وقامته وفروسيته ، وما راح المنفلوطي يصوغه بأسلوبه البلاغي الذي كان موضع استظراف ممن كان قرأ الرواية بلغتها الأصلية .

تدحرجت في شارع سان ميشيل تتأمل المخازن والمحلات وأكشاك الصحف والمكتبات ، والناس الذين يسيرون في كل اتجاه . أغرتها الكتب المعروضة على رصيف المكتبة ، فراحت تلتهم العناوين غير مصدّقةٍ بما ترى . التقطت كتالوك ڤازاريللي وپيكاسو ورامبرانت وموندريان وگاودي ، كان گاودي يأخذها بسحره إلى عوالم حالمة يصعب تحقيقها في مواد البناء المألوفة . لملمت كتبها في حضنها وراحت إلى الصندوق ، أخذت دورها في الانتظار ، دفعت حسابها وخرجت .

أين تمضي الآن ؟ أتستمر إلى الحي اللاتيني أم تعود إلى الفندق لتتصفّح هذا الكنز ثم تتخفف منه وتعود ؟ أحسّت بارتباك لطيف ، فالخيارات مفتوحة ، والرغبات لا حدود لها .

أخذت الباص ٢١ ، وعادت إلى غرفتها الموقّتة في فندق (لا

ڤيكتوار) القريب من كنيسة ترينيتيه في المنطقة التاسعة . نزلت في محطة سان لازار واتجهت إلى الفندق مشياً . كل شيء كان مثيراً للدهشة ، ليس دهشة السائح ، وإنما دهشة من قرأ كثيراً عن باريس ومعالمها وحياتها وبشرها ، وها هو يواجه ذلك ويراه رؤية العين . مع كل ملمح كانت تستعيد أحداث رواية أو كتاب أو فلم أو موسيقى .

رحّب بها مسؤول الاستقبال في الفندق المتواضع ، وأوحى لها بأنه يجيد العربية بعبارته الترحيبية الوحيدة : «أهلاً مدام» .

عرفتْ فيما بعد أنه من أصل تونسي . صارت تسلم عليه بالعربية عندما تراه .

■

زملاء بتول في باريس

لم يدم بقاؤها في الفندق أكثر من ثلاثة أسابيع ، وجدت بعدها (ستوديو) صغيراً في موقع رأته نموذجياً لقربه من معهدها ، استأجرته رغم ما قيل لها عن ارتفاع إيجاره ، فهو يوفر لها وقتاً كان يمكن أن يضيع بين تنقلات المترو دون جدوى .

ثلاثة من زملائها في المعهد ؛ فرنسيان وإيطالية ، أبدوا استعدادهم لمساعدتها في ترتيب المكان . انطلقت مع (ريتا) إلى محل الأصباغ ، وانتقت الألوان المناسبة ، في حين راح (جوليان) يحكّ الجدران ويعالج شروخها وثقوبها بالجص ، وانصرف (سلڤان) إلى تنظيف المطبخ والأرضيّة .

في اليوم التالي أصبح الستوديو أشبه بخرقة الفنانين التي يمسحون بها الفِرَش ، ضحكت حين تذكرت أن العرب يسمّونها (الوقيعة) !

بقايا الدخان على الجدران تجاور بقع الجص البيض ، وعلب

الأصباغ والخِرق الملوثة مركونة في الزوايا ، ونقاط من الجص متناثرة فوق الأرضية الخشبية التي تركوها لآخر وقت . وما إن انتهت عطلة الأسبوع حتى كانت الغرفة كالعروس ؛ زاهية مضيئة تفوح منها رائحة الطلاء والمنظفات .

●

افترشوا الأرض ، ونشروا المأكولات الجاهزة على الجرائد ؛ يومها لم يكن متاحاً الحصول على مأكولات كانت تريدها عربية ، ليس لغرض دعائي ، وإنما لرغبة غامضة ، لذلك جاءتهم بالكباب والحمص بالطحينة والتبولة والفلافل ، وكلها من إعداد سيدة لبنانية تعرفت عليها ، وراحوا يأكلون ويستمعون إلى (جاك بريل) وهو يغني (لي تون جورنال - إقرأ جريدتك) .

●

نقلت بتول حقائبها إلى غرفة (ريتا) ريثما يصل الأثاث البسيط الذي طلبته من شركات الأثاث الجاهز . كانت ليلتها الأولى مع ريتا مريحة وطريفة ، إلا أن الليلة الثانية سلبتْ هدوءها وأربكتها بسبب وجود صديق ريتا الذي قرر أن يبيت تلك الليلة مع صديقته .

لم يكن من شأن ريتا وصديقها أن يعبآ بوجود بتول ، فاندسّا

في الفراش وتركاها فريسة موجة من الحرج والخجل وهي تسمع همساتهما وهمهماتهما وصرير سريرهما . لم تدرِ أين تروح بنفسها من هذا الجو الذي تراه لأول مرة في حياتها ؛ حاولت أن تصرف ذهنها عن الأصوات المثيرة ولكنها كانت تعود وتمسك أنفاسها وتصغي . بدأ جسدها يئن ؛ أحسّت أن أنفاسها تتوالى وتعلو ، خجلت ، ودفنت رأسها في الغطاء وحاولت أن تسيطر على حركاتها التلقائية المحرجة . شعرت أن ريقها يجف ، ودّت لو أنها تستطيع أن تقوم فتشرب ما يرطّب فمها وصدرها المتوهج . ومع أن الصديقين استراحا بعد اللقاء الحميم ، وسكنتْ حركاتهما ، ظلت بتول مشدودة الأعصاب والأنفاس تستحي أن تتحرك . لم تدرِ متى نامت .

■

شيء آخر

انتقلت إلى الستوديو بعد استكمال التجهيزات التي كلفتها مبلغاً باهظاً في نظر الزملاء . كانت مساعدة أهلها كفيلةً بكل ما تريد .

أقامت حفلة صغيرة ضمّتْ عدداً من زملائها الذين جاء كل منهم بهدية فرحتْ بها . ثرثروا وشربوا وأكلوا ورقصوا ؛ وعندما حاول جوليان التقرّب من جسدها ، وضمّها إليه ، صرفتْه بسهولة ولطف . ظلّتْ على مسافة واقية بين رغبتها وكثافة المشاعر المتراكمة من أدب السلوك الذي درجتْ عليه .

عندما ركنتْ إلى الفراش ، بعد تعب اليوم ، انصرفت إلى أفكارها : هذه باريس ، جنة الدنيا ، أم الحضارة الحديثة التي حلمت بها ، وأنتِ أيتها الدعيّة بأنك لولب الحداثة ، وداعية الحرية والأنفتاح ، لماذا خلخلتِ الانسجام مع جوليان ؟

كان جوابها لنفسها : هذا شيء آخر!

هذا الشيء الآخر بقيَ ملازماً حياتَها كلَها ، مسبباً لها قلقاً غائماً لم تجد له مخرجاً في كل ما حاولتْ تفسيره وتخريجه . شيء آخر ، بقيَ طيلة حياتها شيئاً آخر .

عندما التقت كريم بعد سنوات عدّة ، كان الشيء الآخر حاضراً ، ولكنه لم يكن بعيداً عن مفاهيم كريم ، فلديه ، هو أيضاً ، شيء آخر!

●

في الحفلة الباذخة التي أقامتها صديقتها (لميعة) وزوجها احتفاءاً بزفاف ولدهما البكر (محمد) التقى العديد من الطبقة الثقافية ، وتطايرت التحايا والمصافحات والقبلات والذكريات في الحديقة الواسعة الأنيقة التي احتشدت بعدة موائد حافلة بكل لذيذ . كانت بداية الصيف ، لم يكن الحرّ مربكاً ، وكانت الأمزجة رائقةً فانعقدت لقاءات ثنائية وجماعية وحوارات حميمة تشارك فيها لميعة على عجل لتتفقد ضيوفها وتنتقل إلى مجموعة أخرى .

كانت الموسيقى خليطاً بين الموسيقى الشعبية والموسيقى الغربية الراقصة التي جرّت إلى الحلبة العديد من الحضور .

كانت بتول هناك تتنقل بلطف بين معارفها . وكان كريم موجوداً . لم يكونا قد التقيا قبلاً ، وكانت التفاتة ذكية من لميعة التي عرّفتهما على بعضهما . تبادلا الحديث الأول ببساطة وأدب ،

فعرفت منه أنه صحفي وكاتب ، وعرفها مهندسةً معمارية . في هذه اللحظة وصلت صديقتها ريم وأشبعتها قُبَلاً ، فانصرف كريم بأدب وانغمر في حديث مع زملائه . وعندما زخّت الموسيقى الراقصة تقدّم منها باستحياء وطلبها إلى الحلبة ، فاعتذرت بلطف ، فانسحب كريم ، وراحت ريم تسألها :

- لماذا لا ترقصين معه ؟ أنه شاب وسيم ومهذّب ، ومعروف في الوسط الثقافي .

- أنا لم أتعرف عليه إلا منذ ساعة .

- ثمّ ماذا ؟ هذه مناسبات التعارف . ماذا تعلمت إذن من باريس ؟

- البيئة مختلفة يا ريم ؛ هذا شيء آخر .

■

لم تقتنع ريم التي كتبتْ إلى بتول تستحثّها على العودة إلى بغداد ، بتبربرات بتول بضرورة إكمالها الفصل الأخير من رسالة الماجستير ؛ كانت الدنيا جديدة نابضة بالحياة ، والكل يبحث عن دور في بناء المرحلة الجديدة ، والفرح طافح ، ولا ينبغي لبتول أن لا ترى ما يجري في نواحي الوطن ، مع حرص ريم على أن يتألق بالمواطنين ذوي المستويات العلمية الرفيعة التي ستكون ذخيرة للأساس الجديد .

قالت بتول ، لم يبقَ سوى شهرين على حصولي على الماجستير ، ولن يكون موعد اللقاء بعيداً .

●

كيف يتأتى لريم أن تدرك ما يحيق بهذه المخلوقة الأنيقة المترفة الصافية من تصارع المشاعر وغيوم الحيرة والتساؤل والقلق وهموم الابداع ورواسب التكوين ؟

أيكفي أن تقوم الثورة لتعيد بناء العوالم الداخلية للنفوس ؟

هي تحب التجاوز وإعادة الخلق ، ومراجعة عناصر التكوين والتدخل فيها باستثمار كل التجارب البشرية ، وكل الأحلام والمشاعر الذاتية ، وكل ما يؤسسه الحنين إلى رائحة الأرض ، ونكهة التاريخ ، وعبير الحاضر ورفيف المستقبل ؛ فهل يكون لكل هذا مكان في الاطار الاجتماعي والسياسي لواقع الوطن الجديد ؟

وآه مما تبقّى!

آه من الوقوف أمام المرآة وتحديها بعدم استعمال مستحضرات التجميل ! آه من الوقت الذي سيسيل مثل مياه الينابيع مفاجئاً كل الأحلام بما لم تكن تتوقّع ! وآه من ريم التي تدعوني إلى امتحان الأحلام التي لم تتحدد ملامحها ؛ هذه الأحلام التي هي لؤلؤة نقية لم تتعرض بعد إلى روائح غريبة وأضواء غير معروفة ، فتغيّر ألوانها وبريقها .

وآه مما هو أكثر! آه من صورة سناء التي لا تبرح ذاكرتها!

عندما كانت شابّةً كانت مطمئنّةً إلى إمكانية اختيارها الرجل المناسب ، ولكن قلقاً غائماً بدأ ينمو مع انزلاق الزمن .

خافت بتول من استحضار سناء إلى ذاكرتها ، خافت من تصوّر أن يتمطّى الزمن فيحيل واقعها إلى واقع متخثّر ، راكد ، لا يتجاوز

المجاملات الاجتماعية التي تعطّل إمكانية التعامل مع الجمال والحياة .

يكتسب الجمال أحياناً جلالاً وهيبةً ومناعةً ضد العبث به ، ويكون كابحاً لذلك التوق الذي يبلور مشاعرنا ، وحنيننا إلى الصفاء المطلق والمحبة النقيّة ؛ وقد يذهب بنا إلى متاهات تَحرم الجمال نفسه من تحقيق نفسه . معادلة يصعب القبول بها ، ولكنها قائمة ، ومزعجة .

كانت جميلة .

وكانت تتوجّس من وقوع كارثة بسبب ذلك ؛ وكان لتجربة سناء وأمثالها نحتٌ في أعصابها ومشاعرها . وصار ما يشغلها الآن هو التوازن بين شخصيتها وطموحها . وكان كريم سخيفاً حين كان يحلّق في سماوات أخرى .

■

كريم في بغداد

وصل كريم من البصرة والتحق مصححاً في جريدة البلاد بتعريف من صديقه الشاعر البصري الذي قدمه إلى سامي بطي رئيس التحرير باعتباره شاعراً وكاتباً ملتزماً ، وله ممارسات ناجحة في الصحافة البصرية . ومع أنه شكر لصديقه الشاعر حسن تقديمه ، إلا أنه داعبه بشأن الالتزام الذي كانت (مودته) الأدبية شائعة في ذلك الوقت . كانت له وجهة نظر في الالتزام الأدبي ، هي التزامه بحرية الكتابة أولاً ، وعدم الانسياق وراء التصنيف النقدي ومجاراة المذاهب الأدبية التي تضيء وتنطفيء في دوامة الأحداث . كان يرى أن قيمة الأفكار مسألة أساسية ، ولكن ليس من صالحها أن تصرف النظر عن أهمية الواقع .

لم يُخفِ الشاعر امتعاضه من موقف كريم ، رغم كونه ، داخلياً ، كان يودّ لو كانت له جرأة كريم في التعبير بتلك الصراحة عن أمر كان يخاف التطرّق إليه خشية أولئك الذين يُغلّبون الموقف السياسي على الموقف الأدبي ، ويزايدون على المواقف الوطنية .

●

انغمر كريم بيُسر في الوسط الثقافي بعد أن كتب نقداً لمسرحية (أغنية التُّمّ) التي قدمتها فرقة المسرح الحديث ، وأثنى ثناءاً جماً على أداء سامي عبد الحميد ، ونجاح اسماعيل الشيخلي في إيماءاته الذكية في تصميم ديكور المسرحية ؛ مما أثار حفيظة فرقة أخرى ، فاعتبرته منحازاً في نقده .

سامي بطّي ، رئيس التحرير ، كان سعيداً بانتساب كريم إلى أسرة التحرير ، وكذلك فائق بطّي ، مدير التحرير ، الذي لم يكن يخفي انحيازه لكريم في ما كان يثيره من عجاجة في نقده وتعليقاته ، وكان يرى أن نظرة كريم تعزّز توجّه الجريدة المستقبلي ، وتضيف إلى رصيدها الثقافي ما ينسجم مع ما كان والده روفائيل بطي يمارسه من احتضان للمواهب الجديدة ، متذكّراً احتفاءه بمحاولات بدر شاكر السياب التجديدية ، وكتابته مقدمة لديوانه (أساطير) الذي حمل أول قصيدة في ما كان يُسمّى (الشعر الحر) .

●

عندما سُحبت إجازة الفرقة بعد فترة ، كتب مقالاً حاداً منتقداً قرار إلغائها ، مفسراً ذلك تفسيراً سياسياً لم يرُقْ للشعبة الخاصة (دائرة الأمن) التي التقطته وحقّقتْ معه ، وأودعته التوقيف بعض الوقت ، وقدمت له النصائح بشأن ما يكتب ؛ الأمر الذي أوشك أن

يتعقّد عندما أطلق كريم ضحكة غامضة وقال للمحقق :

- استاذ ، هذا أدب وفن ، ونحن نعرف آفاقه وأبعاده ، ونتعامل معه بالشكل الذي يتطلبه الأدب ، وهو أمر نعرفه نحن الأدباء ، مما قد يخفى على جنابك .

- أتعني أننا لا نعرف الأدب ؟

- أعني أن هذه مهنة أخرى غير مهنتكم .

- أتدري أنني أستطيع أن أودعك التوقيف الآن لمدة لا تعرف مداها ؟

- أدري .

- ولكنني لا أفعلها ، لأنك إنسان صادق وجريء وفي مقتبل حياتك الأدبية ؛ تفضل اخرج .

■

في صالون سنيّة

التحقت بتول فور وصولها بغداد بمكتب هندسي مرموق ، وصارت مسؤولة فيه عن التصميم الداخلي (الديكور) . وبفضل موقعها هذا ، تعرّفت على عدد واسع من وجوه المجتمع الجديد من مختلف الأوساط ، وحضرت لقاءات متعددة مع أوساط متنوّعة ، وتعرّفت على وجوه من مستويات مختلفة .

في واحد من هذه اللقاءات ، كان كريم حاضراً ، وكانت فرحة الاثنين بهذا اللقاء طافحة بالمسرة ؛ وكان استذكارهما (الشيء الآخر) مدعاةً لمرح سرّي يشبّث به كلاهما ويحاول أن لا يشير إليه .

حدثها كريم عن سنية وعن صالونها ، واقترح عليها الذهاب معاً إليه . لُسِعَتْ بتول بهذا الاقتراح ، ولكن الفضول في اكتشاف هذه المرأة التي سمعت عن صالونها من أطراف أخرى ، حملها على

الموافقة ، فراحت معه .

كانت هناك تلك المجموعة المتلألئة في المجتمع البغدادي ، وكانت سنية متألقة حميمة تخص كل ضيف برعايتها وكأن اللقاء معقود له وحده .

وفي حين كانت سنيّة تحرص على الايحاء بحيادية التعامل مع ضيوفها ، لم تُفلتْ من بتول تلك اللمحات الخاصة في تصرف سنية إزاء كريم ، تلك اللمحات التي تدركها الأنثى بحدس ملائكي أحياناً ، وبحدس شيطاني في كثير من الأحيان . أما كريم فكان مطمئناً إلى براءته البصْرية التي ظن أنها لا تخفى عن بتول .

هذه البراءة تندرج أحياناً في مدلول الطيبة المعروفة عن البصريين ، وأحياناً في السذاجة وقلة الخبرة بأسرار الحياة ؛ ولكنها عند كريم لم تكن في مجرى هذين السياقين ؛ كانت أقرب إلى التكوين الأخلاقي ونزعة التكامل التي نشأت عنده منذ صغره . فكريم ، أصلاً ، من عائلة متوسطة الحال تعرضت إلى العديد من الأزمات المادية التي كانت تصل بالعائلة أحياناً إلى حافة الفقر ، ومنذ ذلك الوقت كان يتجاذبه قطبان ؛ قطب الوالد وقطب الأم . ففي حين كان الوالد ، على بساطته ، عقلاني الرأي ، كانت الوالدة تلوذ بالغيبيات ، وتنتظر معجزات تنهض بالعائلة من أزماتها التي راحت تتوالى عليها . وبين هذا وذاك ، كان كريم يؤسس مشروعه

على المحبة والتسامح واتساع رقعة المعرفة والتماس الأفضل والأجمل ، طارداً ما كانت الحياة ، في واقعها ، تكشفه من تناقضات وتعقيدات لا تنسجم مع مثالياته .

هكذا راح كريم يبني حياته على قناعة بكون المشاعر الأصيلة الصادقة لن تخفى ؛ وأن الحب عنصر نقي مثل الماس لن ينال من صفائه غبار الوجود ، وأن هناك نوعاً من المغناطيسية التي تنقل المشاعر والأحاسيس إلى المحبوب بأسلوب التخاطر ، دون ضرورة إلى كلام يفصح عنه ؛ ولذلك ظل يعتقد أن الكلام لا يضيف شيءً إلى الحقيقة ، بل قد يجرحها . وليس بعيداً أن يكون لقراءاته في مجال علم النفس ومثاليات (الف ليلة وليلة) ، والتربية البيتية ، أثر في تكوين هذه الرؤية التي أضاف إليها من أخلاقياته ما جعلها ، في نهاية الأمر ، تحدد سلوكه وممارساته في الحياة .

ولكن أين من كريم ما يربط الحقيقة بالواقع ؟

●

ثقُلتْ الأمسية على بتول ولكنها اعتصمتْ بالهدوء لئلا تثلم رأي كريم فيها .

لم تعُدْ ثانية إلى صالون سنية .

■

كان جمالها الباهر يلوي أعناق الرجال والنساء ، ويذهب بهم إلى منابع النشوة والرهافة ويفتح قلوبهم على الرضا والطمأنينة ، ويحدد سلوكهم إزاءها ؛ في ما بين الغيرة التي كانت تعصف بالنساء وتفتح شهيتهن للأحاديث التي لا تخلو من الغمزات والتوريات ، وأحياناً من التصريح ؛ كان الرجال يتهامسون فيما بينهم عن سر هذا الجمال المتكامل القاهر الذي يمر بهم فيشعل كوامن الشهوة ويفتح نوافذ الأحلام ، ويثير غبار المقارنات واللوعة على الخسائر التي أكلت عمرهم ولم تربح مثل هذا الكيان النادر .

جمال كان حلم كل الرجال والنساء ، وكان حضورها يشيع البهجة والهناء ، ويثير الخيال في تصوّر هذه المخلوقة التي وهبتها الطبيعة أجمل ما يُطمح إليه ، وأحلى ما يمكن للطبيعة أن تتبجح به .

كان بعضهم يقول إن جمالاً بهذا الشكل مربك للرجال ، فلو

قدّر لأحدهم أن يتزوج هذه الأنثى فلن يسلم من عيون المعجبين والحاسدين ، حتى من بين الأصدقاء ، وهذا النظر كيفما جاء يجعل زوجها متيقظاً ومتوجّساً دائماً ، يقرأ الملامح ويفسّر التعليقات ويرقب اتجاه نظرها واستجاباتها لما ترى وتسمع ؛ وفي ذلك ما فيه من عناء وتوتر قد ينعكس سلباً على علاقتهما ؛ وربما كان سبباً في إعادة رسم الحدود مع الأصدقاء . وقد يُرهب الرجال من هبوط سطوتهم أمام الجمال ، فيستحيلون إلى حرّاس له ومؤتمِرين بأمره .

ويقول آخر إنه لا يمكن تأسيس محبة دائمة على أساس الجمال وحده ، فالجمال ، مثل كل شيء معرّض للألفة والملل ، وربما للتغيير والتآكل . ويعقّب آخر بأن للجمال شروطاً أخرى ؛ هي أن يبقى متألقاً ومتوهّجاً ، مواكباً لمستجدات الحياة ، سواء من حيث الاستمتاع بها وبمعطياتها ، أو من حيث المواضعات الإجتماعية وما تقتضيه ، أو من حيث الحالة المادية التي تكفل له مستوىً من الحماية ؛ فليس من المعقول أن يُترك جمال كهذا في مطبخ البيت يجلو الصحون ويفرم الخضار ويكنس الأرض .

الجمال قاهر ، يسلب حرية الرجل في مجتمع مثلما نحن فيه ، مثلما يسلب حرية المرأة متع الحياة المعاصرة ، فلا حفلات ولا سهرات ولا سفرات ولا ما يوحي بكونهم أبناء جيلهم .

والأوجَه أن يكون الجمال متوازناً ومعقولاً بحيث لا يشغل

الرجل بمراقبة العيون وتأويل الحركات والأحاديث ، ويصرفه عن متع الحياة وشروطها .

رؤىً وتخريجات تبدأ بجمال سناء ولا تنتهي ، فإذا انتهت في هذه الحلقة من المعارف والأصدقاء ، تنفتح في حلقة أخرى آخذةً مسارات غيرها .

وإذْ كان جمال سناء الفائق مثاراً للفتنة والاثارة والأحلام التي لا تنتهي ، كان ، بمعنى ما ، أساس قلقها ولوعتها التي تحرص على عدم إظهارها للملأ ؛ ولكنها كانت تنخر في خلاياها ، وتتسرب إلى مساماتها ، وتحيل سعاداتها الصغيرة إلى غصّة لا يعرفها الآخرون الذين يتهيّبون من التعامل معها بأكثر من كونها زميلة أو صديقة ، دون أن يتعدّى ذلك إلى ما يمكن أن يكون أبعد من ذلك ، إلى ما تنزع الأنثى ، بطبيعتها ، إلى تأسيسه لبناء أسرة مثل كل الناس .

وكان للجمال كبرياؤه ، وكانت تعي أن جمالها الذي يخطف الأبصار ذو حق بأن يصان ويترفّع ويبقى حلماً شهيّاً بعيد المنال .

كان هذا أيام كانت في مراحلها الأخيرة من دراستها الجامعية .

وها هي اليوم تتجاوز الثلاثين ، وهي تخاف أن يظل الحلم حلماً دون أن يتاح لها تكوين أية علاقة تذهب بها ملكةً إلى

سرير الزوجية .

●

ومع أن لسناء العديد من الصديقات الطيبات إلا أنها لم تكن تأنس وتنفتح نفسها إلا مع بتول التي كانت تتجنب بحصافة ومودّة الخوض في هذا الموضوع الذي لم يعد خافياً عن عيون الصديقات . ومع أن النساء حريصات على الأسرار الصغيرة وتداولها ، فلم تجرؤ أي منهن على الإشارة إلى واقع سناء هذا .

قالت بتول :

- أنتِ بهيّة هذا اليوم .
- هل لاحظت جديداً ؟
- تقريباً ؛ أخبريني .
- وصلتني بطاقة من سعيد وتهنئة بأعياد الميلاد .
- ثمّ ماذا ؟
- جاء وكرر تهانيه ودعاني إلى فنجان قهوة في (كافيه بغداد) .
- روحي!
- أخاف يا بتول .
- هل هو مخيف!
- أبداً ، إنه ودود جداً وعالي التهذيب .
- روحي إذن ، واخرجي من قفص الكآبة الذي تحبسين

نفسك فيه .

- أخاف يا بتول ، أخاف أن أرتبك وأفسد المناسبة .

- شوفي سناء ، لا أحد يستطيع أن يضبط مسار الكلام كما يشتهي ، فالكلام يجرّ بعضه بعضاً ، خذي الأمر ببساطة وتحدثي كما لو كنتِ تتحدثين معي .

- يا ليت يا بتول . أنا الآن في السادسة والثلاثين ؛ أدنى زلّة قد تغلق منافذ الأمل كلها .

- مِمّ تخافين ؟ ما زلت شابة بارعة الجمال وأمامك ألف فرصة .

- ما جدوى الفرص يا بتول ؛ لقد كانت لي المئات منها ، وهربت واحدة بعد الأخرى . هناك مسافة بين الظن بكون الجمال ضامناً للحياة السعيدة ، وبين ما يجري بين يديك . أنا لا أريد أن أكون دمية تستجلب الفرح وتثير الإشتهاء والبهجة ، ولا تنظر ما وراء غلالة الجمال . أريد أن أعدّ الفطور ، وأنشر الغسيل ، وأكوي الملابس ، وأرتّب الفراش لليلة غزل حالمة أفتح فيها كل نوافذي ، وأستنشق ذلك العطر الذي يختصر الوجود كله في دقائق .

أريد أن أفتح مساماتي على عوالم غارقة في القدم ، من عهد عشتار إلى مارلين مونرو ، وأستيقظ لأعدّ الفطور مثل جارتي .

■

كريم الآن في بغداد ، يسكن شقّة بسيطة ذات غرفتين في محلة ابو قلام في الكرّادة ، رخيّ الاحساس بأنه يعيش بالشكل المناسب ، حيث يستقبل أصدقاءه ويسهر معهم ، وتأخذ العلاقات الحميمة أبعادها ، وتتوهج العواطف ، وتنفتح النفس على الأغوار الحساسة النابضة المقهورة التي تتلمّس منفذاً إلى ضوء الشمس ؛ وكانت شقّته المتواضعة هي مشرق الشمس التي يتألق فيها مع تلك الزمرة من أصدقائه المقربين ، ويعيدون صياغة العالم على نمط مختلف ؛ وكان مجرّد اختلافهم يمنحهم الاحساس بالسعادة وبافتراض الحضور الفعّال في حركة الزمن . ولم يكن واقع الحال كذلك ، فلكريم منحىً آخر في تفسير الأمور ، يختلف عما تطرحه فورة الكأس ، وحماسة الزملاء ، كان يحاول الربط بين منطق أرسطو وأفكار فرانس فانون وچي گيڤارا ، وما جرى في ربيع باريس . كانت المعادلة صعبة نوعاً ما ، ولكن لا مهرب من البحث عن أوجه العلاقة بين مختلف الأفكار التي يمكن أن تمنح النفس

بعض السلوى ، وربما بعض القبول . ولم يكن القبول سهلاً ، ولم تكن القناعة نهائية . كان تراكم التجارب وما يطفو على سطح الواقع ، وضغط الأحاسيس ، يؤلف دوّامةً تأخذ بالرأس إلى مدارات لا تُحتمل .

●

فوجيء كريم ، كما فوجيء كل العازبين في بغداد ممن يستأجر شقة لنفسه ، بقرار الحكومة إخلاء كل الشقق التي يسكنها العزاب ، ومن لا عائلة تقيم معه ، ومنعهم من استئجار أية شقة في بغداد ؛ وهو قرار لم يكن من اليسير تفسيره على كثير من هؤلاء الذين ظلوا دون مأوى لوقت طال ببعضهم وأحرج وضعهم وحيّرهم .

كانت أمامهم فترة زمنية محددة لاخلاء شققهم . وكان لكل منهم سيناريوهات متعددة للخروج من هذه المحنة في حدود تلك الفترة ؛ ولم يكن لكريم أي مجال ممكن ، فهو إما أن يعود إلى البصرة ، وإما أن ينتظر معجزة تخرجه من هذه المحنة . ولكنه لم يكن ممن ينتظر المعجزات ؛ لذلك داخ وظل متوتّر الأعصاب ، صامتاً ، عديم الشكوى ، متحصّناً بقناعة بكون ما يجري الآن سيختلف غداً . منطق! وهو كرجل منطقي ، عليه أن ينتظر ويفكّر .

في هذه الفترة المتاحة لهم للاخلاء ، حضر كريم ، كعادته ، جلسة في صالون سنيّة ، هادئاً باهر الحضور ، لم يفقد حيويّته ، ولم يبدُ عليه ما يَشغله بهذا الشأن . ولكن الحديث دار تلقائياً عن هذه المشكلة التي دوّخت الناس ولم يكن لأيٍّ منهم مخرج من هذا المأزق .

بعد أن أخذ القوم وطرهم من الأمسية ، وجعل بعضهم يودّع بعضاً ، همست له سنيّة وهي تودّعه :

« لا تقلق ، البيت واسع وغرفتك جاهزة إلى أن تجد المكان المناسب » .

تخدّر كريم ، وأحسّ برغوة تصعد إلى دماغه من هذه المفاجأة ، ولم يقدر على التعليق بغير كلمة واحدة : شكراً .

كان موزّعاً بين الشك واليقين وهو يقطع طريقه مشياً إلى شقتّه التي لم تكن بعيدة عن منزل سنيّه . أكانت تعني ما تقول ؟ أأكون في ضيافتها حقّاً ؟ أهي فورة شراب أم حقيقة ؟

●

لم يكن لكريم متاع ذو أهمية غير مجموعة من الكتب وعدد من الصحف التي تضم ما كتب ، وحقيبة للملابس ؛ أما الأثاث فلم يكن غير حشية ووسادتين ، وطاولة بالية وكرسيين وأدوات

مطبخية بسيطة . وهو ما يمكنه التخلي عنه ، وعدم الاثقال به على سنية .

أنفق يوماً كاملاً في غسل ملابسه وترتيبها ، وأخذ ما يقتضي الكي إلى المكويّ ، وصار جاهزاً للانتقال وقت ما يشاء .

عند العصر ، مرّ على مالك الشقة ، وألغى عقد الإيجار ، وسدد ما عليه من ديون ، وقعد يشرب الشاي مع الحاج محمود ، مالك الشقّة الذي أبدى أسفه على مغادرة كريم الذي سأله هامساً :

- ما معنى هذا القرار ، وأين سيذهب من لا عائلة لهم ؟

- لهم الله يا ولدي . الجماعة يخافون من تحويل شقق العزاب إلى أوكار لمعارضيهم .

●

قالت له : « لستَ ضيفاً ، ولك أن تتصرف كما يحلو لك ؛ وسأتصرّف أنا كما لو كنتَ غير موجود ، فلا حرج » .

في المساء ، أعدّتْ مائدة ترحيبية حرصت على ألا تكون باذخة كما تشتهي لئلا تحرجه . قالت بتلقائية :

- الكؤوس في الخزانة ، والشراب أيضاً . هذه أمور ستراتيجية عليك أن تعرفها .

- وهذا تكتيك جميل سأحاول استيعابه !

ضحكا ؛ ورفعا كأسيهما ولامساهما برفق .

تجنّبت الحديث كليّاً عن شقته ؛ ولم تبالغ بالحفاوة ، إذ كانت وقتما وصل ، دلّته على غرفته ومرافق البيت بتلقائية وبساطة ، لكي يحسّ أنه في بيته ، وناولته نسخة من مفتاح البيت .

قالت لابنتها ليلى :

«عمّو كريم سيبقى معنا في البيت ، كوني لطيفة معه» .

●

استيقظ قبلها . نزل إلى الشارع ، وعاد بالخبز الطازج ، وراح يُعدّ الشاي ويحضّر الفطور في انتظار استيقاظها .

تناولا فطورهما ، وودعها إلى الجريدة .

أحسّتْ أن فضاء البيت صار أكثر صفاءاً وانفتاحاً ؛ وأن نكهة الرجولة أعادت إليها توازنها العاطفي والروحي ، وأزالت إحساسها بالوحدة ، فانصرفت تعدّ بنفسها وجبة الغداء وهي تخطو بخفّة ورشاقة وكأنها تسير على الغيم ، وراحت تتمتم بأغنيات متقطّعة .

تناولت قليلاً من الحساء في الملعقة لتختبر ملوحته ، لا مجال للخطأ ، لم يعد في العمر متسّع للأخطاء . تمايلت مرحاً وحرّكت يدها في الهواء لاصقة الابهام بالسبّابة ، تعبيراً عن دقّة تقديرها لكمية الملح ، وإعجاباً بطعم الحساء ؛ تحفة !!

«المدخل إلى شخصية الرجل ، معدته»!

يا ويلي إذا كان كريم من هذا الطراز ؛ سأحيا طبّاخة إذن!

●

كل شيء كان محسوباً ومرتّباً بدقة ، خطوة بخطوة ، ما كان مؤجلاً هو الوقت والمناسبة ، لم تكن على عجل ، فهي منذ ثلاث سنوات ترسم السيناريوهات لهذا اللقاء ، وتمحوها ، ثم تعيد رسمها ، حتى صُقِلتْ مثل ماسة قلادتها ، وصارت محفوظة عن ظهر قلب .

■

أناقة !

كان كريم يألف الحضور بين زميلاته في الجامعة أثناء الفرص ، يتناولون الشاي والمرطبات ويثرثرون في انتظار الحصّة التالية . كانت (سامية) الجميلة الرقيقة ذات النظارتين الأنيقتين ، شديدة الولع في أن تلمّع حذاءها الأنيق الرقيق مثلما يفعل الرجال الذين يسترخون على حركة الفرشاة على أحذيتهم ، ولكن هذه الرغبة لم تتحقق لكون أحذيتها الأنيقة ذات السيور والزركشات التي تُظهر أصابعها الناعمة النظيفة المثيرة للخيال ، لا تصلح للطلاء ؛ وكان هذا مثار تندّر وملاطفات بين الزملاء .

تذكر كريم هذه الصورة القديمة وهو يرى أحذية سنية شبيهة بحذاء سامية ، لكن بمستوى أرفع وأثمن .

كانت سنية موهوبة في اقتناء ملابسها ، وخصوصاً أحذيتها التي لم يشهد قريناً لها عند من عرف من النساء . كان هناك تكامل فريد في اختياراتها .

يبدأ المهرجان اليومي الذي يحبه عندما تأخذ زينتها أمام

المرآة .

فلهذا المشهد سحر يعرفه العشاق ، حين تبدأ المعشوقة بطلاء أظافرها ، وتنسيق شعرها ، وحمرة خدودها ، وتكحيل عينيها ، وتختم ذلك بحمرة الشفاه .

يتأمل مأخوذاً بهذا الطقس الذي تمارسه ، حتى إذا تناولت حذاءها ، ابتسم في نفسه منتظراً أن يرى أيَّ حذاء ستختار ، هي الفنانة المبدعة في انتقاء أحذيتها الأنيقة .

ما للنساء لا يفكّرنَ مثلها بروعة التكامل بين السيقان التي تشبه جمّارَ الجنة ، وبين ما يرتدين من أحذية ؟! هو مأخوذ بجمال أحذيتها ؛ تذكّر أنه وقف أمام مخزن للأحذية في لندن ، رأى حذاءاً مما يليق بها ، أراد أن يتصل بها ليتأكد من قياس قدمها ، ولكنه خمّن أنها ستماطل ولا تعطيه القياس ، لذلك صرف النظر وانتقى هدية أثمن وأحلى وأكثر بهاءاً وجاذبيةً .

●

بعد جولة لهما في أسواق المدينة ، عادا إلى البيت ، وما إن استقرّت سنية على الأريكة حتى أقعى أمامها وراح يفك سيور حذائها فردة فردة ، ويتأملها كأثر جمالي لفنان موهوب . يأخذ الحذاءين برفق ويركنهما على جهة ، ويتناول الأصابع المتفتّحة ، ويفردها واحدة واحدة ، ويدغدها بحنان ثم يمسح بلطف وجه القدم

عابراً بأناة إلى مبتدأ الساق فأعلاه ، وصولاً إلى الركبة التي تعرف سنية أن عليها الآن أن تلوي ساقها ليظهر باطن الركبة الذي ينهال عليه كريم تقبيلاً وشمّاً . وكانت ، من جانبها مأخوذة بأصابعه النحيلة ذات الحركة السحرية التي تفتّح براعمها وتتسلل برفق إلى ينابيعها الفوّارة .

كانت تقول إن للأصابع لغة ، ليست كلغتها عند الراقصات الهنديات ، وإنما لغة تنقل الأحاسيس والمشاعر والدفء والحنان كأحسن مما ينقله اللسان ، وكانت أصابع كريم بليغةً آسرة .

كانت جميلة ، وهذا لا شكّ فيه ، وأنيقة ، ولا شكّ . ولكن هذا الجسد الذي بين يديه كان ذا حضور يفوق هذه الظواهر ، كان مدخلاً لعوامل وجدانية ومشاعر عاطفية طاغية تجعل منهما كياناً متوحداً متكاملاً يصوغ الوجود بمفردات سريّة لا يعرفها سواهما .

نسيا وهما في غمرة هذا التوهّج العاطفي والجسدي دورةَ الزمان ، وحضورَ الآخرين وقياساتهم . كان زمانهما الآن ، هذه اللحظة ، فليشحناه بالفرح ، وغداً يوم آخر .

■

راضي ومطشر

في معمل البلاستيك الذي التحق به راضي ، تعرّف على شاب صغير السن كان لولباً لادارة عمل المعمل ، وموضع ثقة صاحبه . وسرعان ما نشأت بينهما علاقة عذبة . كان كل منهما يبذل جهداً واضحاً في إنجاز ما يُعهَد إليه على أحسن وجه ، فصاحب المعمل ليس كأصحاب المعامل الأخرى ؛ كان رجلاً مثقفاً ذا رؤية وموقف في السياسة والثقافة والحياة ، وكانا يتجنّبان الخوض في الأمور السياسية ، ولكن حدساً غامضاً كان يقوم بتنسيق علاقتهما الودية خارج حدود علاقات العمل .

لم يكن صاحب المعمل غافلاً عمّن يشتغل معه ، ولكنه كان مطمئناً أن لصفاء علاقاته كربّ عمل ، مع مستخدميه ، دوراً في السياق المطلوب لعمله . ولم يكن من العسير ملاحظة كونه ذا ميل إليهما وإلى اتجاهاتهما السياسية المعروفة ، ومحاولة مساعدتهما دون ضجيج .

انتهى الدوام وراح الشاب يتحقق من كون كل المكائن مطفأة ، وكل المواد اللازمة لليوم التالي مجهّزة . أغلق باب المعمل والتفت إلى راضي الذي اقترح عليه أن يتناولا الشاي في أحد المقاهي القريبة المطلة على دجلة قبل العودة إلى البيت .

●

يرى بعض الناس أن حفظ السر مسألة أخلاقية في الدرجة الأولى ، وهي بالتالي مسألة متعلقة بالجانب التربوي للشخص ؛ في حين يراه آخرون حُبّاً أو احتراماً لذي السر ، فهو من هذه الناحية قضية موقّتة ذات علاقة محدودة . راضي محمود كان من الصنف الأول الذي تعوّد على دفن أسرار الآخرين في صدره ، وقد عزّز هذا الموقف لديه طبيعة عمله في مجالات تقتضي السرية القصوى . ولكن كيف ما كان الأمر ، لا يختلف راضي عن غيره في الاحساس بثِقَل السر على صدره ، وشعوره بأن الافصاح عن بعض تلك الاسرار التي يتجاوزها الزمن ويقل خطرها ، ضروري لأمرين ؛ الأول لجلاء حقائق غائمة أو غائبة ؛ والثاني للتخفيف من ضغط ما يسببه حفظ السر الذي كثيراً ما يكون مما لا يستحق أن يضغط على القلب . ويحدث أن الثقة والاطمئنان إلى بعض الناس يخفف أحياناً من حدّة الالتزام ، فيجعل السر يتسرب مخففاً ذلك الضغط ، ومانحاً صاحبه بعض الراحة النفسية .

بمرور الزمن ونضوج التجربة صار راضي شاهداً على أمور وأحداث كثيرة ، وصار موضع ثقة من الكثير من الناس ، في حين كان بعض معاصريه يهابونه ويتجنّبونه لأنه يعرف الكثير عنهم ، وهم لا يريدونَ هذه المعرفة!

بعد حوار حميم دافيء طويل ، أصغى إليه الشاب باحترام ، قال راضي :

- هذا ملخّص ما مرّ بي ؛ لقد أنقذني التوقيف من المصير الذي حل برفاقي ، حين كانت ماكنة الموت تأكلهم . كل ما مرّ بنا أننا نُقلنا من موقف إلى آخر ، ونسونا هناك .

■

راضي في البصرة

ما إن استقرّت الأوضاع حتى عاد راضي إلى البصرة وحاول أن يستفيد من دكانه في سوق الهنود . وبطريقة عملية واضحة ، صار موزِّعاً لمنتجات معمل البلاستيك الذي كان يعمل فيه ببغداد مع مطشر حوّاس ، مضيفاً إليه تجهيزات ورقية تخدم الطلاب والفنانين ، وصار دكانه موضع لقاء الفنانين والمثقفين الذين يعرفونه .

لم يكن كثير الحماس للمشاركة في ما كان يدور من أحداث وانقسامات في صفوف القوى الوطنية ، والحوار المحتدم بين الوطنيين المحافظين ودعاة الكفاح المسلح ، لذلك ظل يرقب الوضع ولا يعلن ميلاً إلى أي طرف ، وإن كان في داخله متعاطفاً مع الطرف الثاني ، إذ كان يرى أن الأخطاء التي مرت بها القوى الوطنية هي ، في أساسها ، ما كان ناقشه فيه رفيقه في التوقيف .

في هذه الأثناء كانت فكرة الكفاح المسلح تأخذ مكانها في واقع

العمل السياسي ، وبدأت الأخبار تتوالى عن نشاطات الداعين لها . وسرعان ما أفرزت البصرة دعاة الموقفين . وكان راضي يكتم ألمه لهذا الانشقاق ، ولا يعلن موقفه الذي صار يعتقد أنه غير ذي قيمة في هذه المعمعة التي صارت تلفّ البلد بأكمله . ومع ذلك ، ظل راضي موضع احترام الطرفين .

على أن نبأ زعزع كيانه وأوشك أن يذهب به إلى تحديد حاسم وسريع لموقفه الغائم .

لقد قُبِض على مطشر حواس ، ذلك الشاب الوديع المتفاني ذي الشخصية المتواضعة والمشبّعة بالمبادىء الثورية ونموذج المناضل الثابت الرأي والموقف ، وصديقه الذي أفضى إليه بتاريخه الحميم وهواجسه الموجعة .

دوّامة صاخبة من اللوعة والمرارة كانت لفّت رأسه وغامت على عينيه وضغطت على قلبه حتى ظن أن لا مخرج له من هذا المأزق النفسي الذي يضيق عليه ، ولا قدرة له على احتمال هذا القدر الهائل من الحزن الذي هبط عليه فجأة ، وراح يدقّ على صدغه ، وراحت الهواجس والتخيلات تتناسل في فكره عما يمكن أن يؤول إليه مصير صديقه مطشر .

■

مصير راضي

كان يبدو لكثير من الناس أن الأمور تجري على سياق مقبول بعد تلك الزوابع السياسية التي مرّ بها البلد . فها هم الصحفيون والأدباء القدامى يعودون إلى ممارسة أعمالهم في الصحف الجديدة ، ويرتادون نقابة الصحفيين واتحاد الأدباء فيشربون ويثرثرون ، وفي اليوم التالي تظهر كتاباتهم حاملة ذلك النفس المكبوت من الحرية ، ولو بالقدر الذي يستحقون أكثر منه . كانوا سعداء بمعنى ما ، إذ كانوا يعتقدون بأنهم يساهمون في إنشاء رؤية جديدة لواقع الوطن ، وإمكانية جديدة لتغيير الأوضاع عن طريق ما يسرّبونه من أفكار جريئة عبر زواياهم الصحفية ، ومن خلال حواراتهم الحارة في مقاهي بغداد ومنتدياتها ، والمجلات التي ظهرت يومذاك وما كانت تضمه من رؤىً فنية وممارسات تجريبية أسست لملامح جديدة طبعت إنتاج المرحلة بما يميّزها عن ما سبقها . وانبثقت عنها معالجات جديدة وأسماء جديدة أخذت فيما بعد مدارها في تاريخ الثقافة العراقية .

ولكن المسافة بينهم وبين الناس لم تكن على سياق ما كانوا يتوقعون . وفي واقع الحال ، كانت تلك المطامح الطيبة خارج الواقع ؛ أو لنقل إنها لم تحظ بما تستحق من اهتمام ، بسبب انطلاق الناس إلى ممارسة أعمالهم وبناء مشاريعهم الحياتية وفق الظروف الجديدة . ولكن ذلك لم يوقف اندفاع أهل الثقافة في مشاريعهم المستقبلية .

ولكن نفَس الحرية هذا لم يدم طويلاً فقد غامت ثانية سماء الوطن ؛ وبدأ التعثّر في سياق الحياة يَشغَل حيّزاً من هموم الناس ، وكانت ملامح فئة اجتماعية تتشكل بهدوء أولاً ، ثم باندفاع مسنود من السلطة ، مما أشاع نوعاً من التوجس والحذر عند الناس ، واختفت الطمأنينة بين تلافيف القلق المتجدد .

●

قال كريم لهاشم ، زميله في المجلة :

- أصحيح ما كتبتَه عن فلان حين زرتَه في زنزانة الاعدام ، أنه قال : «أستاهل ، بحقي»!

- لا ، أبداً !

- عجيب ؛ كيف ترضى لنفسك وأنت الصحفي العريق ، أن تكذب على شخص في طريقه إلى الموت ؟

- ماذا تريدني أن أقول ؟ أنا أصلاً لم أقابله ولم أحكِ معه .

أحس كريم بشرخ عميق وعريض في كل القيم الاخلاقية والمهنية التي كان يؤمن بها ويعدّها أساساً لمعاني الانسانية ؛ ولم يملك غير أن يبصق ويغادر الغرفة .

منذ ذلك اليوم ، اقتنع كريم بأن طاعون الكذب والدجل والنفاق ، وصل إلى حد أن يكذب هاشم على الأموات ؛ هكذا ، دون إيعاز من أحد ، ودون إرهاب واضح . وغمره شعور بقذارة العمل الصحفي الذي لم يكن يتصور وجودها في هذا الوسط . وانهالت عليه خيالات كابوسية وصور مرعبة زلزلت كيانه وجعلته ينوء بنوبة من الغثيان والصداع المدمِّر .

في اليوم التالي لم يحضر كريم إلى المجلة ؛ اعتكف في شقّته وراح يشرب ويشرب ويبكي ، حتى لم يعد قادراً على الوقوف .

كان صديقه الحميم ، راضي محمود ، من جملة من عُلّقوا في ساحة التحرير في ذلك اليوم الأسود .

■

لم يُفلح حنان بتول ولا إشفاق سنية اللتين كانتا على علم بعلاقته براضي ، وكانتا تتصلان به بالتلفون ، في التخفيف من الصدمة التي ضعضعت كيانه ، وأشعلت غضبه ، واستدعته إلى مراجعة مواقفه والتزاماته وتحويلها إلى حالة الإحباط التام ، فها هو ركن من تاريخه انهدم وصار ركاماً . لم يعد هناك مكان لمناقشة ما جرى وما يمكن أن يؤول إليه الوضع ، ولا للتساؤل ولا للتفسير ؛ هناك موضع واحد للحزن المتخثّر الضاغط الذي يتحوّل إلى ألم ممضٍّ يفلق الرأس ويصك الأمعاء التي نسيت حاجتها الطبيعية .

■

رُشَتْ الحديقة بالماء وفاحت أنفاس الرازقي والنرجس والورد الجوري وملكة الليل والثيّل وأوراق الليمون والنارنج ، وانتقل انتعاش الطبيعة إلى النفوس ، وراحت سنية تتأرجح بهدوء على الأرجوحة ورجلاها تلامسان برفق الثيّل الرطب . أغراها هذا الوضع فقامت وجاءت بإناء وضعت فيه ماءاً دافئاً ونقّطت فيه بضع نقاط من المعقّمات ، ووضعته أمامها وغطست قدميها فيه . شعور غامض جعلها تأخذ نفساً عميقاً وتسترخي لدقائق ، ثم تغادر الحديقة إلى غرفتها .

تناولت المقراض فقلّمت أظافرها بأناة ودقّة ، ثم تناولت المبرد وراحت تنحتها وتسوّي أطرافها لتأخذ شكل اللوزة . غطست قدميها ثانية في الماء وأخرجتهما ونشّفتهما تماماً وانتظرت بعض الوقت قبل أن تبدأ الطقس الدقيق الطويل في طلاء أظافرها .

قعدت أمام مرآتها تتزيّن . لا موعد في هذه الأيام ، ولكنها

العادة ، عادة الترقب والاستعداد . تجري على وجنيتها حمرة (لانكوم) . تقرب وجهها من المرآة ، تتملّى اللون الفاصل بين أقصى الوجنة وما خلف الأذن ؛ لونان شاحبان يختزلان مسافة عمر ، تحاول أن تقرّب اللونين من بعضهما بتكثيف الكريم في ما وراء الأذن إلى أسفل الرقبة بأمل أن يكون امتداد اللون طبيعياً ؛ تتراجع قليلاً ، تغيم نفسها ، تمسح زينتها بنفور وحنق ؛ تجرب مستحضرات كريستيان ديور ؛ شحوب لا يعجبها . لانكوم أفضل! فهذا ما اختاره كريم . أين هو هذا الشقي الآن ؟ إنه يزرع في حقول جسدها أزاهير تخلّف رائحة لابدّ أن تكون هي رائحة الجنة . تعود إلى المرآة تتطلع إلى صفحة خدها ؛ ما زال متفتحاً طريّاً يتوهج بالدفء ، دفء يبقى حبيساً حيث هو ، ولا يتسلل إلى أعماقها التي اجتاحتها فجأة برودة خاطفة . تتناول المشط ، وبحركة مرحة وسريعة تمرّ على شعرها الذهبي . تتناول (الماسكارا) وتروح تنسّق حاجبيها وأهدابها ، تطمئن إلى سلامة تخطيطها ، فتتناول قلم الحمرة لتعطي الشفاه حقها من هذا الطقس الفني الفاتن .

فجأةً ؛

قذفت المرآة بالفرشاة وضربت بجمع يدها على الطاولة فانقلبتْ أصابع الحمرة وزحفت قناني العطور وسقطت إحداها على الأرض ففاحت تلك الرائحة المنعشة التي يحبها كريم .

لستُ جديرة بهذه الزينة وهذه العطور ، لست جديرة بكريم ، لست جديرة بهذه الجنينة ، لست جديرة بكل هذا ؛ ياإلهي إلى أين جئتَ بي ؟ لماذا أقصيت كريما عني ، كيف لي أن أتبيّن حقيقة الأمور ؟ كل من مرّ بي كان مسافراً على عجل ، ولم أكن مستعجلة مثله ، كريم وحده الذي كان يمشي بهدوء على أطراف الحلم ويمنحني الاحساس بالتوازن ، ويحيل تاريخي كله إلى معادلة بسيطة لا تتطلب كل هذا العناء الذي أسلفتُ عمري فيه ، لماذا أخذته مني ؟ لماذا جعلتني أتلبّس غرور الأنثى ، وألقيتَ في نفسي رغبة التنقّل من خانة إلى أخرى ، واختبار حالة بعد أخرى ، وأغريتني بأن أدرج كريماً في هذه الدوّامة ؟ أما يكفيني هذا ؛ أما آن لهذه الروح أن تستقر وتطمئن بعد هذا العمر الطويل ؟

يكفيني هذا ، يكفيني يا سيدي ومولاي . ها هو العمر يتقلص دون أن يثمر غير القلق والحسرة . كل الذين كانوا يَعمُرون هذا البيت تبخّروا ؛ لا الأدباء ولا الفنانون ولا ذوو النزعات الشيطانية ، ولا الثقلاء الذين يندسّون بين أصدقائهم ويصرفون وقتهم في الثرثرة وعيونهم تأكل الأعصاب ؛ حتى هؤلاء لم يعد لهم وجود ؛ لقد شبعوا من جوعي ووحدتي ؛ حتى الجنينة التي لم تأنس إلا بحضور كريم ، فقدت رونقها ونكهتها ، وصارت ملتقىً لليلى وزميلاتها وزملائها . وكريم غادر بفضل حماقاتي . كان موسوعةً لأحلامي ورغباتي ، بدءً من أدوات زينتي ودفء

مشاعري ، وانتهاءاً بطموحي الذي لا أعرف حدوده . ويوم جاءني بهديته الجميلة ، تشكيلة (لانكوم) لأدوات الزينة المناسبة لمن هنّ أصغر مني عمراً ، صدمته بإهدائها إلى بنت أخي لكون ألوانها شاحبة تناسب الوجه الطبيعي ، وكنت أنا ، كشأن العجائز أريد الألوان الزاهية القوية . كنت أتدلل عليه ، وكان يحب دلالي . لم أشكر له أية هدية ، في حين كان يزهو بما كنت أهديه .

أتساءل الآن ؛ أهذا كل ما هنالك ؟ أم أن خطوط غيرتي ولجاجتي هي التي حملته على مباعدة اللقاءات ؟

بتول ؟

ربما !

أنا لم أرها منذ تلك الليلة ، ولكنها كانت تنحت في أعصابي . جمالها وثقافتها كانت فوق ما أطيق ، فأين سنية بنت الحاج صاحب القادمة من عشّار البصرة ، من تلك القادمة من پاريس موشّحةً بالشهادات والتجارب والمستقبل المفتوح ؟!

كان يقول لي ، ونحن في حالة الوجد المحرق ، إن الحب يتآكل بمرور الزمن ، ويمكن أن يستحيل إلى مدعاة للملل ؛ ولكن المتأصّل منه يتحوّل إلى صداقة ثمينة .

لم أكن أريد هذه الصداقة ، كنت أريد أن نظل مشتعلين دائماً .

هل يحبها مثلما أحبني ؟

هل تحترق بالوجد مثلما كنت أحترق ؟

مستحيل ؛ فهي تفتعل الحياء لتخفي مغامراتها الپاريسية ؛ فلا فراش ولا احتراق!

■

أحلام بتول

تستيقظ بتول ذات يوم على حلم مفزع : بدلتها الجميلة التي اشترتها قبل أسبوع قضم العث شيئاً منها في موضع النهد الأيسر . ارتاعت وانتفض جسمها ، وصدرت منها آهات مسموعة جعلتها تنهض من الفراش وهي تختض .

فركت عينيها وراحت تستبين أفق الغرفة ، وما إن استعادت صحوها حتى تراءت لها صورة سناء ببهائها وبدلة زفافها التي لحظت فيها لوناً قاتماً عند نهدها الأيسر . حاولت أن تفر من الصورة بمغادرة الفراش وتناول كأس من الماء ، ولكنها اتجهت بتلقائية إلى دولاب ملابسها وتحسست بدلتها الجديدة ، واطمأنَت إلى وجودها سالمةً كما اشترتها .

عادت مرهقة لا تقوى على النوم .

●

أحلام بتول صارت تتوالى ، بين الأحلام السعيدة والكوابيس ،

ولم يغيّر انغمارها في عملها وآفاقه الواسعة من حالتها . لم يكن ذلك بسبب انغماسها في العمل وابتكارها رؤيً جديدة في المجال المفتوح لها ، ولكن وعي الروح والجسد هو ما كان يؤرقها . كان ذلك خارج حدود المتداول في علاقات الناس اليومية .

كانت علاقتها بكريم تَختصَر بفنجان قهوة في (كافيه بغداد) وحوار يطول عن الثقافة والفنون ، ومتابعة إنتاج الأصدقاء وزيارة المعارض ، وببعض الحذر ، حضور العروض المسرحية سويّةً ، وما أشبه ذلك ؛ لم يقتربا مما كانت تنتظره منه ، وكريم لم يكن غبياً فيتجاهل ما يدور في رأسها من تصورات ، ولكنهما كانا ، بمعنى ما ، جزيرتين ، لكل منهما حدوده وشواطئه ومواعيد انطلاق سفنه نحو المعلوم المجهول .

كان يضيرها أن يتعامل كريم معها كما لو كانا خارجين للنزهة ، ينتهي وقتها فيعودان كل إلى بيته ؛ وكانت شخصيتها واعتدادها تكبحان كل رغبتها في الإشارة والتلميح .

هل كريم وحده في هذه الدنيا ؟

ما الذي يشدها إليه بهذه القوة ؟

قوّة حضوره أم ضعف قدرته على اتخاذ القرارات ؟

ليس من الغريب أن يكون ضعف القدرة على اتخاذ القرارات الحاسمة ، باعثاً على الرضا ، فله أبعاد سريّة عصيّة على التفسير ،

أكثر مما تتيحه مواضعات أخرى ذات خصوصية بين اثنين .

●

لماذا لا تسأله عما يريد من علاقتهما التي لم تعد تخفى على الأصدقاء ؟ والتي بدأت تترهّل بمرور الأيام .

رأت من جانبها أن اللعبة لا يمكن أن تستمرّ بهذا الشكل ، ولا بدّ من تحديد ملامح هذه العلاقة .

سألته : ما الذي يحملك على العودة إلى البصرة ؟

قال : إنها مدينتي ؛ فيها بيتي وأهلي ومكتبتي وذكرياتي ولي فيها إمكانية العمل والإنتاج بعيداً عن ضوضاء بغداد ، يكفيني أن أكون مراسلاً للجريدة في البصرة .

أوشكت أن تسأله « أهذا كل شيء » ؟

ولكنها لم تسأل . أرادته أن يدرك فحوى سؤالها . ولكنه تغافل وراح يحدثها عن الوضع الثقافي في البصرة وما يتطلبه من اهتمام .

أحسّت بتول بأن أحلامها بدأت تتآكل وتصاب بالنحول ، وتبتعد عن الواقع ، وأن التباس هذا الواقع صار منهكاً ومحيّراً ، فهذا آخر النماذج التي رسمتها لمستقبلها سيغادر إلى البصرة دون أن يترك أية إشارة لما كانت تحلم به .

■

مع لميعة

- لقد عدتَ إلى وكرك الجميل أيها الشقي ؛ أين أنت ؟
- من ؟ لميعة ؟
- نعم لميعة التي تتهرب منها .
- أعوذ بالله . أنا أتبارك بوجهك الجميل ، فكيف أتهرّب منك ؟!
- عدنا إلى أخلاقياتك ولغتك الجميلة . تعال تعشَّ عندنا هذا المساء .
- بمنتهى الشوق .

●

في الحديقة المرشوشة ذات الأشجار الباسقة والأصص المحتشدة على جوانبها ، والتي بمقدور لميعة أن تتحدث عنها شهراً بلا ملل ؛ أخذت مكاني على الأرجوحة ، فجاءت وشاركتني فيها .

- كيف كنت في البصرة ؟
- مشوّشاً ، لم تعد إلى عهدي بها ؛ حتى الأصدقاء

تشتتوا ، وفرّقتهم المواقف السياسية . كنت ، بمعنى ما ، غريباً فيها ، وتذكرت قول شاعرها :

هذه البصـــرةُ ما خالجنا   خاطرٌ أنا بها نغـــتربُ
قد أتيـناها فلم نبصرْ بها   بعضَ ما كنا له ننتسبُ
حقبةٌ من عمرنا لو نطقتْ   خجلت مما تضمَ الكتبُ

- حتى هنا ، في بغداد ، تفرّقت بنا السبُل ، وتقلّصت لقاءاتنا ، وصرنا أكثر احترازاً . الأجواء خانقة ومتوترة ، ونحن لم نتعوّد على هذا الحصار ، ولا ندري كيف يجب أن نتصرّف . هل اتصلت ببتول ؟

- لا ! فأنا هنا منذ أسبوع .
- على ما أعلم أنك لم تكن تُطيق فراقها أسبوعاً .
- تماماً . سأتصل بها ، وربما أراها .
- ربما ؟!
- بل لا بدَّ أن أراها .
- لم تكن منصفاً معها .
- كنتُ مشوّشاً ، وما زلت .
- ما الذي تعرفه عن أسرار المرأة ؟
- سأتعلم منك .
- إسمع كريم ؛ أنت جعلت بتول متعلقة بك ، مأخوذة

بأخلاقك وثقافتك ، في الواقع كنا جميعاً معجبين بك ، ولكنك كنتَ تلهو ، وتشبع جوعك العاطفي بلقائها والتحدث معها دون أن يكون لك أي مشروع أبعد من ذلك .

كان عليك ، كشخصٍ واعٍ أن تفهم عواطف شابّةٍ تحبك ، وتحلم ببناء مستقبلها معك ، ولكنك كنتَ في عالم آخر ، هو مزيج من الرومانسية والفردية حملك على أن تلملمَ أوراقك وترحلَ إلى البصرة ، دون أن تحدد علاقتك بها .

لا تقل لي إنك لم تلحظ حبها لك ، ورغبتها فيك . وها أنت تقول لي إنك هنا منذ أسبوع ولم تتصل بها .

- يا لميعة ، يمكنك أن تقولي إنني إنسان متشرّد لا أقوى على تحديد وضعي ، ولا أستطيع حمايتها وترتيب مستقبلها . ويمكنك أن تضيفي إلى ذلك أن مصادرنا ومواردنا السياسية غير متوافقة ، مع أننا لم نتناول ذلك ، وكنت أخشى أن يهدم ذلك آمالنا ، فكلانا لم يمرّ بهذه التجربة ولم يفكر بها ، هذا ما أفرزته ظروفنا القائمة .

- إذن لماذا واصلتَ علاقتك بها وجعلتها تنتظر ؟

- سأتصل بها غداً .

- لا تتصل !

■

فهرس

صدر للمؤلف:

- أمطار - شعر، مطبعة الرابطة، بغداد ١٩٦٢
- برتقالة في سوْرة الماء - شعر، دار الآداب، بيروت، ١٩٦٨.
- سهرة كابن عراقية - قصص قصيرة ، المركز العربي للفنون والآداب، بروكسل ١٩٩٤.
- أبعد من الكلمات - شعر بالفرنسية، ترجمة عدنان محسن، دار آرماتان، باريس ١٩٩٥
- أيام عبد الحق البغدادي - أشعار ونصوص أدبية، دار المدى، دمشق ١٩٩٥.
- نافذة على الصمت - مجموعة شعرية - منشورات الصكار، باريس ١٩٩٢.
- الصوت الأخير - مجموعة شعرية - منشورات الصكار، باريس ١٩٩٥.
- دفتر الحرب - شعر - منشورات الصكار، باريس ١٩٩١.
- بسمار - شعر شعبي - منشورات الصكار، باريس ١٩٩٣.
- ثمر المحبّة - قصائد ورسوم من الأصدقاء. منشورات الصكار، باريس ١٩٩٤.
- الأعمال الشعرية - دار المدى، دمشق ١٩٩٥.
- محنة محمود الشاهد (نصوص مسرحية)، دار المدى، ١٩٩٨.
- ابجدية الصكار - المشروع والمحنة، دار المدى، دمشق , ١٩٩٨.
- لواعج الأصفر (قصص قصيرة)، دار المدى، دمشق ٢٠٠١.
- الخط العربي للناشئة - دار الساقي، لندن ١٩٨٧.
- المجموعة الفنية الأولى - ٩ لوحات خطيّة مطبوعة بالشبكة الحريرية، باريس ١٩٨٢
- المجموعة الفنية الثانية - ٥ لوحات خطيّة مطبوعة بالشبكة الحريرية، باريس ١٩٨٤
- المجموعة الفنية الثالثة - ١٣ لوحة خطيّة مطبوعة بالأوفست - هامبورك ١٩٨٧.
- حروف الصكار الطباعية (ثلاث مجموعات تحتوي على ١٧ نمطاً من حروف الكومبيوتر) ، إصدار ديوان العلوم وتقنية المعلومات، لندن ١٩٩٣و١٩٩٤.